مواقف بعض الرسل
في القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ
محمد علي سلامة
مدير أوقاف بورسعيد

مطبعة استراتو الحديثة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولى الهدى والتوفيق . . . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرحيم الشفيق ، وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهم الى أقوم طريق وسلم تسليماً كثيراً .

(وبعد) : فإن العبد المسكين قد أجرى الله على لسانه هذه الموضوعات التى جاءت فى هذا الكتاب ، ليذكر بها نفسه مع إخوانه المسلمين ، فعسى أن تضىء لهم بعض النواحى فى طريق الإيمان . قال الله عزَّ وجلَّ " **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** "(١) وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : " أفضل مايُهدى المؤمن لأخيه المؤمن كلمة حكمة يزيده بها هدى أو يرده بها عن ردىً " .

وقد عالج هذا الكتاب أموراً تهم المسلم فى دينه وفى حياته ، فرأيت من الواجب علىّ أن أوضحها لإخوتى المؤمنين مستعينا بالله سبحانه ، مستهدياً برسوله صلى الله عليه وسلم . ولقد كان لرفاقى وأحبابى الذين قاموا بتصحيح هذا الكتاب ، وطبعه ونشره اكبر الأثر فى تقديمه للمسلمين ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد تفضل علىّ بهم فأعانونى على إخراجه فى هذا الأسلوب البسيط ، ماكنت لأستطيع أن أقدم لأحد شيئاً منه ، وإنى أسأل الله تعالى بقلب منكسر الى جنابه العلى ، أن يجزيهم عنى وعن المسلمين خير الجزاء .

وإنى أرجو من أخى المطلع على هذا الكتاب أن يبدى ملاحظاته فى أوجه النقص التى تكتنفه ، ويرسل بها الىّ ، فلعلنى استدركها إن شاء الله تعالى عند إعادة طبعه ، فإن المسلم مرآة أخيه المسلم ، إن رأى فيه عيباً أصلحه وعدَّله . كما أرجو منه أن يستغفر الله العظيم

---

(١) آية (٥٥) الذاريات

لى فإنني والحمد لله ، أقر وأعترف بأن اخطائى ومساوئى لاعدَّ لها ولا حدَّ ، ولولا أن الله قد سترها عن المسلمين لتعفنت بها هذه الحياة" **وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلَّا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم**" (٢) . وأسال الله من فضله أن يرزقنى توبة خالصة لوجهه الكريم إنه قريب مجيب الدعاء .

والصلاة والسلام على شفيع المذنبين ، وغياث المستغيثين ، ورحمة الله للخلق أجمعين ، وعلى اله وصحبه أمين وسلام على جميع الانبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين .

العبد المنكسر القلب الى الله ورسوله
محمد على سلامة

---

(٢) آية (٥٣) يوسف .

شكر وتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

يسر جمعية الدعوة إلى الله بمصر الجديدة - محافظة القاهرة

القيام بطبع هذا الكتاب ونشره لنفع المسلمين بما فيه من معانٍ سامية وحكمٍ عالية فهى تقدم خالص الشكر لفضيلة الشيخ / محمد على سلامة مدير أوقاف بورسعيد لقيامة بهذا العمل الجليل حسبةً لوجه الله تعالى وابتغاء لنفع إخوانه المسملين فى شتى بقاع الأرض ونسأل الله تعال أن يجازيه أفضل الجزاء على قيامه بهذا المجهود الشاق ورفضه الحصول على أى قيمة مادية أو معنوية مقابل هذا العمل كما نرجوا من القارىء المسلم أن ييسر لأخيه المسلم الاطلاع على هذا الكتاب بعد قراءته له حتى يعم النفع لجميع المسلمين .

رئيس الجمعية

مختار حافظ حسن

مواقف بعض الرسل فى القرآن الكريم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم رسل الله وعلى جميع الانبياء والمرسلين ، ومن اهتدى بهم إلى يوم الدين .

أما بعد : فإن رسل الله هم صفوة الله وخيرته من عباده الصالحين ، وقد اختار الله من رسله أولى العزم ، سيدنا نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، واختار من أولى العزم خاتم الرسل وسيدهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا كان الرسل جميعاً أهل عناية الله الكبرى ، وولايته العظمى ، مع التفاوت فى درجاتهم ومقاماتهم ومراتبهم . ولأنهم قادة المجتمع الإنسانى وأئمته ، والمثل الاعلى له ، فأكرمهم الحق تبارك وتعالى فطهرهم وعصمهم من مقتضيات البشرية ، كالحرص والطمع والشح ، والمكر والخداع ، والميل والهوى والحظ ، وحب الدنيا وزينتها وزخارفها ومتعها ، وكل الدواعى التى تهبط بهذه المثل العليا إلى دركات البشرية .

وقد جملهم الله جميعاً بمكارم الاخلاق السامية ، التى تجعل كل شىء من خلق الله يحبهم ويحن إليهم ، حتى الحيوانات والطيور والجمادات . ولم يدركهم فى هذه المعانى أحد مهما كان ، لأن حكمة الله إقتضت أن يكونوا كذلك شموساً تتراءى للناس فى أفق النزاهة والكمال والجمال ، تضيىء لهم سبل الله ومايحبه ويرضاه عز وجل ، ومع ذلك فاذا وقع من أحدهم هفوة تحوم حول هذه الكمالات العلية ، نبههم الله إليها ، ولفت نظرهم نحوها ، وعاتبهم على ما وقع منهم ، لان الله أرادهم ان يظلوا فى مقامهم العلى ، وجمالهم البهى .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فإن معاتبة الله لرسله ، ليبين الله لعباده أنه سبحانه لم يجامل فى الحق والدين أحداً ، ولو كان من أعز الرسل عليه وأكرمهم لديه ، فتتجلى العدالة الإلهية المطلقة لجميع الخلق ، حتى مع من اصطفاهم الله لحضرته ، واختارهم لذاته .

ومن ناحية ثالثة فإن هذه المعاتبة تنبه الأذهان بقوة ، إلى أن هؤلاء الرسل هم أمناء الله ، وخلفاؤهُ على عباده ، فهم يبلغونهم كل ما أنزله الله اليهم ، ولو كان فيه عتاب لهم من الله أو مؤاخذه . وفى ذلك أعظم دليل على رسالتهم ونزاهتهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد صارت هذه المواقف معجزة لهم ، أدهشت عقول أعدائهم ، واعجزتهم أمامهم وامام الناس أجمعين . فلو كان الرسل يدَّعون الرسالة كما يقول الكافرون ، لما نسبوا لأنفسهم هذه الأمور التى يأخذها أعداؤهم عليهم ، ويستعملونها ضدهم ، ويروجون بها الشائعات عليهم ، ويبلبلون بها أفكار الناس من حولهم . ولكن إظهار هذه المواقف بكل شجاعة وإصرار ، وبكل رضى واقتناع ، ألزمت الكافرين الحجة ، وقطعت عليهم سبيل المحجة .

وسنري معا هذه المواقف ، لنزداد إستمساكا بالحق الذى نحن عليه والحمد لله ، وليقوى فى قلوبنا إكبار الانبياء وإجلالهم وحبهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

١ ـ مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم

ا - **الموقف الاول** : كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن أم مكتوم ، وكان رجلاً كفيف البصر ، وقد نزلت سورة من سور القرآن الكريم تسمى سورة (عَبَسَ) . تبين هذا الموقف ، وقد ابتدأها الله عزَّ وجل بقوله " **عَبَسَ وتولى أن جاءه الأعمى** (١) "

ومن نظر الى هذا الخطاب الكريم ، وجد أنه إخبار من الله تعالى عن إنسان غير معروف ، وقع منه العَبُوس والتولى ، عند مجيىء رجل أعمى إليه غير معروف كذلك . وفى هذا التعبير الكريم احترام لمشاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله عز وجل ، فلم يقل الله له عَبَستَ وتوليت أن جاءك الاعمى . ولقد دعى هذا التعبير المقدس بَعْضَ المفسرين ان يقسم ويقول على رسول الله ، والله ماعبس وماتولى . ولكن القرآن بعد ذلك وجه الخطاب الى رسول الله قائلاً : " **ومايدريك لعله يزكى** "(٢) . فعلمنا أن هذه الحادثة كانت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بينت الاحاديث الشريفة انها كانت مع عبد الله بن أم مكتوم ، حتى أن رسول الله كان إذا لقيه بعد ذلك قال له " مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى " ويقول له " هل لك من حاجة " (٣) . ولو كان الموضوع مع غيره عليه السلام ، لقال الله ومايدريه لعله يزكى .

فقد ورد أن كبار كفار قريش كانوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عليهم رسول الله بالحديث ، واهتم بهم ، واخذ يدعوهم الى الاسلام رجاء أن يؤمنوا ويؤمن بايمانهم كثير من الناس . وفى أثناء حديثه معهم ، جاء عبد الله ابن أم مكتوم يطلب من رسول الله ان يعلمه مما علمه الله وكرر عليه هذا الطلب ، ورسول الله مشغول بالقوم ، فعبس رسول الله وتولى عن عبد الله بن أم مكتوم .

---

(١) آية (١ - ٢) عبس . (٢) آية (٣) عبس . (٣) رواه الترمذى

ولو نظرنا الى وقائع هذه الحادثة لوجدنا أولاً أن سيدنا عبد الله ، وإن كان أعمى لايرى القوم ، لكنه يسمع حديث رسول الله اليهم وانشغاله بهم ، فكان عليه ، رضى الله عنه ، أن ينتظر حتى يفرغ رسول الله اليه ، وذلك من أدب الحديث ، بل من الواجب فى مثل هذه المواقف .

وثانياً أن رسول الله كان مشغولاً بالحديث مع القوم ، من أجل الله ورسوله ودينه ، لا من أجل أى شيء آخر . وربما كان عتاب الله لرسوله فى هذه الحادثه ، من أجل أن سيدنا رسول الله لم يُعَلِّمّ عبد الله ابن ام مكتوم أدب الحديث ويقول له انتظر حتى أفرغ من الحديث مع القوم . ولم يكن عُبُوسَ رسول الله واعراضه عنه من اجل مجيئه اليه ، بل كان من أجل طلبه من رسول الله أن يعلمه ، وإلحاحه فى الطلب فى هذا الظرف المهم .

ومع هذا كله لم يترك القرآن الكريم هذا الموضوع ، وإنما تحدث عنه باستفاضة ليعلم الناس جميعاً أن العبوس والتولى عن الطالب ، لم يكن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى جعله الله رحمة لجميع العالمين ، وإنما كان ذلك أمراً طارئاً وعارضاً ، نظراً لانشغال رسول الله بما هو أهم فى هذه الساعة ، من دعوة كبراء قريش للإسلام ، وأمله فى إسلامهم ، ومع ذلك فقد عاتبه الله فى هذا العبوس والتولى ، وأن ما وقع منه صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن أم مكتوم لم يكن ينبغى ، حتى مع هذه الظروف التى كان فيها . وليعلم الكافرون أن أصغر مسلم من المسلمين خير عند الله من ملء الدنيا كفاراً ، وأن الله لايبالى بهم مهما كانوا . وليعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الكافرين الذين انشغل بهم عن عبد الله ابن ام مكتوم ، لم يشرح الله صدورهم للاسلام وأنهم لاحاجة لهم فيه ، وأنهم مستغنون عن الله ورسوله وعن الاسلام ، فلا تهتم بهم .

وهذه السورة الكريمة أدرات راحاً صافياً لأهل محبة الله عزَّ وجلٍّ ، حيث كشفت لهم الستار عن مدى محبة الله لرسوله ، وولايته له ، وعنايته به ، وأن الله أراد أن ينزه حبيبه ومصطفاه عن كل هفوة ، وعن كل مايؤخذ عليه . فإن الكافرين الذي كان يحدثهم ، شهدوا ماكان منه صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أم مكتوم ، والله غيور على حبيبه ، فلم يترك عِرضهُ إليهم يلوكونه بألسنتهم ، فانزل فى هذا الامر بياناً اخذ بمجامع قلوبهم ، وابهرهم وأدهشهم وحيرهم ، وأكد لهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وصحة الدين الذى يدعو اليه .

ثم إن فى هذه السورة الشريفة توجيه كريم فى شخص رسول الله لكل مؤمن ومؤمنه ، أن يتخلق بهذه المكارم العالية ، والاخلاق النبيله السامية .

ولقد كشفت هذه السورة النقاب عن كيفية معاتبة الله لحبيبه من الرقة والملاطفة ، والاحترام والتبجيل ،وأن الله لم يقبل ولم يرضى فى حبيبه أدنى شائبة يأخذها عليه أحد من أعدائه .

وإنى أرى أن هذه السورة الكريمة دفاع عن سيدنا رسول الله ، وتصديق له ، وإعجاز للناس فى عصره وفى كل زمان ألى يوم القيامة . وذلك بأن القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ ، ولم يستطع أحد تغييره او تحريفه ، وهذه السورة أكبر شاهد على ذلك . وقد كان أهل الكتاب يغيّرون ما جاء فى كتبهم مما يدينهم أمام الناس ، لأنهم كانوا يوهمونهم أنهم قديسون ومنزهون عن كل شينٍ ونقص ، ومن حقهم أن يبدلوا وينسخوا ويحرفوا مايشاءون من كتبهم ؛ لأن الرب فوضهم عنه فى ذلك . ولكن القرآن قد حفظه الله بنفسه ، وبرسوله ، وبورثة رسوله ، وبالعلماء الراسخين ، وبجميع الأمة الإسلامية ، لأنه كتاب الخلود . قال تعالى : " **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** " (١) .

(١) آية (٩) الحجر .

ومن ناحية ثالثة : فإن الله عزَّ وجلَّ هو الملك الكبير المتعال ، وله أن يدين من يشاء من عبادة بما يشاء ، من غير أن يعترض عليه أحد فى ذلك ولا فى غيره بشىء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ، وأول من يلتزم بآداب الله ووصاياه ، وأن الله تولى سياسة أمره وتأديبه بنفسه سبحانه .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم قرير العين بهذا العتاب الالهى السامى . والعتاب دائماً يكون بين المحبين ليدوم صفاء المحبة والوداد ، ولذلك كان رسول الله كلما لقى عبد الله ابن أم مكتوم قال له" أهلا بمن عاتبنى فيه ربى هل لك حاجة "[١] . وهذا يشعر بكمال الرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا العتاب ، فقد ورد فى الخبر " إذا أحب الله عبداً عاتبه مناماً " . اما رسول الله لمكانته فقد عاتبه الله بقرآن يتلى ، وبيان يهتدى به إلى يوم الدين .

وفى هذا الموقف أسرار ومعان جلَّت عن الحصر والإدراك ، ولكننا تناولنا من مدامته ماتهنت به الأرواح ، وتنعمت به القلوب والعقول .

« **سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم** »[٢] ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(ب) المواقف الاخرى

موقف ثانى :

وفى القرآن مواقف أخرى عاتب الله فيها رسوله ، منها : تحريمه صلى الله عليه وسلم على نفسه بعض الأطعمة التى أحلها الله له ليرضى بعض زوجاته عليه السلام ، فقال الله له : « **يأأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم** »[٣] .

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) آية (٣٢) البقرة .

(٣) آية (١) التحريم .

فلم يرض الله لحبيبه أن يمتنع عن طعام يحبه فى سبيل إرضاء زوجاته ، فعاتبه برحمة وحنان ، وقال له ياأيها النبى لم تضيق على نفسك، وتحرم عليها ما أحله الله لك من طيبات المآكل والمشارب ؟ فإن كان ذلك إرضاءاً لبعض نسائك ، فإنَّ حقك فى هذا الطعام أكبر وأعظم من إرضائهن ، فَكفِّر عن يمينك الذى حلفته وتناول هذا الطعام . " **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم** (١) .

وموقف ثالث :

وموقف آخر له صلى الله عليه وسلم فى شأن المنافقين ، الذين طلبوا من رسول الله أن يأذن لهم فى التخلف عن الجهاد ، فأذن لهم صلى الله عليه وسلم ، فعاتبه الله بكلام صدَّرة الله بالعفو العام عنه صلى الله عليه وسلم ، ليعلم كل إنسان أن جميع أعمال رسول الله التى عاتبه الله فيها ، قد عفا الله عنه فيها مسبقاً ، ذلك لأن رسول الله يجتهد فيها لله ولدينه وللمسلمين ، ولم تكن عن شهوة وهوىً . فقال الله سبحانه مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم :" **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** (٢) "

وموقف رابع :

كان منه صلى الله عليه وسلم مع أسرى غزوة بدر ، حيث قبل رسول الله منهم الفداء وأطلقهم ، وكان الأولى أن يقتلهم ، حيث قال تعالى معاتباً حبيبه : " **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض** " (٣) . والإثخان فى الارض هو القتل بدون إمهال ، ثم قال سبحانة : " **تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما**

(١) آية (٢) التحريم . (٢) آية (٤٣) التوبة (٣) آية (٦٧) الانفال .

أخذتم عذاب عظيم "[1]. والكتاب الذى سبق لهم من الله ، هو العفو الإلهى الذى منحه الله لرسوله مسبقاً قبل عتابه وقبل أخذ الفدية من الأسرى .

ولقد أشرنا لهذه المواقف على عجل حتى نلم بها إلمامة يسيره ، تغنى من يطّلع عليها عن البحث فى المطولات . وقد ورد فى حديث شريف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أدبنى ربى فأحسن تأديبى "[2]

والتأديب هو الرعاية التامة ، والتربية الكاملة ، حتى يبلغ الانسان درجات الكمال الرفيع . وقد بلغ رسول الله أرقى منازل الرفعة والسمو ، أدبا وكمالاً ولطفاً ، وجمالاً ووفاءاً وحباً ، وإخلاصاً وصفاءاً وقرباً من الله عزَّ وجلَّ . ولقد بين الله ذلك بقوله سبحانه " **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا**"[3] يعنى فإنك ملحوظ بأعين حبنا وولايتنا ، ورعايتنا ونصرنا ، وعنايتنا ورحمتنا ، وعفونا وعطفنا ، وغيرها من أعين الذات الإلهية التى لايحيط بها أحد إلاَّ الله عزَّ وجلَّ .

وإنَّ غيرة الله على حبيبه ومصطفاه بلغت المنتهى ، بحيث لم يدع سبحانة شائبة تكاد أن تحوم حوله صلى الله عليه وسلم ، إلاَّ نحاها عنه وبرّأه منها ، ولاباباً يفتح عليه إلاَّ أوصده فى وجه من يفتحه ، برّاً به صلى الله عليه وسلم ، ووفاءاً له وإكراماً . قال تعالى فى الامتنان عليه صلى الله عليه وسلم : " **وكان فضل الله عليك عظيماً** "[4] .

ثم ننتقل بعد ذلك الى مواقف أخرى فى القرآن الكريم مع رسل الله السابقين .

---

(١) آية (٦٧ - ٦٨) الانفال .
(٢) رواه ابن السمعان فى أدب الاملاء عن ابن مسعود .
(٣) آية (٤٩) الطور
(٤) آية (١١٣) النساء .

(٢) (موقف نبى الله داود عليه السلام مع الخصمين الذين اقتحما عليه المحراب)

وسيدنا داود نبى ورسول من أنبياء بنى أسرائيل . وكان عليه السلام نبياً ملكاً ، وحاكماً عادلاً فى رعيته ، مع تبليغ ما أرسل به إلى قومه ، ولم تشغله عظمة الملك وزينته ، ولاسياسة الرعية وتدبير أمرها ، عن عبادته وتقربه الى الله عزَّ وجلَّ ، فقد قسم حياته إلى يومين ، يوم ينظر فيه فى شئون الرعية والحكم ، والقضاء بين الناس ، وإبلاغهم ما أمره الله به ، ويوم يصومه ويتفرغ فيه للعبادة والتقرب من الله سبحانه . وكان فى هذا اليوم يدخل الى خلوته ومحرابه بعيداً عن كل الخلق ليؤدى فيه حق الله ، من صلاة وذكر وشكر ، وتسبيح وتحميد ، وغير ذلك ، وقد علم الناس ذلك فكانوا يتركونه عليه السلام فى هذا اليوم لعبادته وتقربه .

وقد اقتحم عليه المحراب فى هذا اليوم رجلان ، فانزعج وفزع منهما سيدنا داود عليه السلام ، لأنه أمر مفاجىء ، وبصورة مريبة ، وغير إنسانية ولا مَرْضيَّة . وهذا أمر طبيعى يعترى أى إنسان عندما يتسور عليه أحد منزله بدون إذن ، ويترك الباب المعد لدخول الناس ، وفى خلوة لم يكن معه أحد من أهل بيته . فذلك أمر مؤلم ومخيف حقاً ، إلاَّ أن الخصمان طمأناه وقالا له لاتخف ، نحن خصمان بغى أحدنا على صاحبه .

وقد ذكر القرآن المجيد هذا الموقف فقال : " **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إنَّ هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على**

بعض إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب" [1] .

وكلمة(هل) للاستفهام البيانى ، يعنى هل علمت يامحمد بهذا الخبر والبيان العجيب الذى سنلقيه إليك ، وهو نبأ الخصمين اللّذيْن اقتحما سور المحراب على داود عليه السلام .

وحيث أن القرآن ذكر أنهما خصمان متنازعان حول موضوع النعاج المذكور ، فلا مجال لتأويل هذا الكلام القرآنى الصريح الى معنى أخر ، وإنما التأويل يكون فى الكلام المتشابة الذى لايظهر المراد منه ويحتمل معان كثيره . أما الحديث الذى ورد فى هذه الاية الشريفة فهو فى غاية الصراحة ، وقد رأينا عتاب الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم كيف كان واضحاً وصريحاً فى القرآن الكريم .

وقد طلب الخصمان من سيدنا داود أن يحكم بينهما بالحق ، وأن لايشدد عليهما فى حكمه ، وأن يرفق بهما فيه ، وأن يهديهما الى الصراط المستقيم . وكأن الخصمان قد أحسَّا وأدركا أنهما قد أساءا الأدب فى جرأتهما على نبى الله داود ، واقتحامهما محرابه عليه بهذه الصورة ، التى هى منكر فى الحقيقة ، فخافا أن يجازيهما داود على سوء فعلهما بتشديد الحكم عليهما ، فطلبا ما تقدم ذكره وثوقا بعدالته .

ثم أخذ يقص المظلوم مظلمته بقوله (**إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب**) . وهذا هو صلب القضية ، وأصل الموضوع الذى تنازعا فيه .

والنعاج معروفة لنا جميعاً ، ولايكنى بها عن المرأة كما يذكر البعض ،لأن المرأة يكنى عنها بما يرمز إليها من الظباء والمها ،

---

(١) آية (٢٤) ص .

والغزال والنعام ، وما إلى ذلك من الحيوانات ذات المنظر الجميل .
وإن كان قد ورد فى اللغة العربية مايفيد الكناية عن المرأة بالنعاج ، فهذه لغة ضعيفة جداً ، والقرآن جاء بالعربية الفصحى ، ولكن الموضوع هو نعاج حقيقة ، ومتخاصمان من البشر كما هو ظاهر النص القرآنى .

وعلى الفور اصدر سيدنا داود حكمه فى القضية . وهنا كانت الهفوة التى وقعت منه عليه السلام ، فإنه لم ينتظر حتى يسمع من الشخص الاخر المدعى عليه ، فصار الحكم ظالماً لأنه لم تستوف حيثياته ، ولم يعط فرصة للمدعى عليه فى الدفاع عن نفسه وإبداء وجهة نظره .

وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو جاء رجل يشكو اليك وقد فقئت عينه فلا تقض له حتى يحضر صاحبه فربما قد فقئت عيناه"(١) .
وهذا هو العدل الذى أمر الله به رسله وأنبياءة عليهم السلام ، وأمر به المؤمنين فى كل زمان ومكان .

ومعنى (أكفلنيها) اعطها لى وتنازل لى عنها ، وقد يكون معناه أكفلها وأرعها لك مع غنمى ، واسترح أنت لأنها نعجة واحدة .
ومعنى **(وعزنى فى الخطاب)** غلبنى بحجته وأخذها منى ، مما دعانى أنا وهو إلى سرعة المجيىء إليك على هذه الصورة ، وطلب الاحتكام اليك فى هذا الوقت ، فمعذرة يانبى الله .

وكان الحكم على صاحب التسع وتسعين نعجة بأنه ظالم ، وأن صاحب النعجة الواحدة مظلوم ، ومن حقه أن يأخذ نعجته ويتصرف فيها كيف يشاء ، وأن يكف الظالم عن ظلمه ، ويعطى للمظلوم حقه . وكان تبرير سيدنا داود لهذا الحكم ، أن كثيراً من

---

(١) رواه احمد والحاكم عن على كرم الله وجهه .

الخلطاء يبغى بعضهم على بعض . فكل منكما يكفل نعاجه فقط ، دون أن يأخذ من أخيه شيئا ويخلطه بنعاجه ، حتى لايقع نزاع فيما بعد حول هذه الشركة . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إذا تشاركوا فى عمل ما ، فإنهم لايتظالمون ، ولايبغى بعضهم على بعض ، لكن أين هم ؟ وقليل ما هم .

وبعد استماع الحكم خرج الخصمان فوراً لتنفيذه . والظاهر أن الخصمين كانا من أهل البادية الذين لم يعرفها داود عليه السلام ، فلما قضى لهما وانصرفا وراجع سيدنا داود نفسه فى هذا الحكم فوجده ناقصاً ، وأنه لم يعرف الخصمين حتى يطلبهما لتصحيح الحكم ، وكأنه أسقط فى يده عليه السلام ، فندم على ذلك وعلم أن الله قد ابتلاه بهذين الخصمين لينظر كيف يحكم بينهما ، فأخذ يعتذر إلى الله ويتوب إليه ويستغفره ، ويبكى على ذلك ، وأكثر من الركوع والسجود والتذلل والتضرع لله عزَّ وجلَّ ، حتى أكرمه الله سبحانه وقبل اعتذاره وغفر له .

وهذا معنى قوله تعالى **(وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب)** . ومن أجل ذلك قال الله له بعد ذلك : **"ياداود إنا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله"** (١)

وماورد من القصص حول هذا الموضوع فإنها غير صحيحة ، لان الأنبياء معصومون من المعاصى ، صغيرها وكبيرها ، ولاينبغى أن يقال على رسول كريم على الله كسيدنا داود عليه السلام ، إنه طلب من أحد أتباعه أن يطلق إمرأته ليتزوجها ، كما لايجوز أن يقال عليه أنه أرسل هذا الرجل الى قتال أعدائه ليتخلص منه ويتزوج امرأته ، فإن ذلك افتراء على رسل الله وأنبيائه الذين عصمهم الله

(١) آية (٢٦) ص .

من مثل ذلك ، وطهر قلوبهم من الحظ والشهوة والهوى .

وقد سمعت من بعض أهل الاشارات رضى الله عنهم فى هذا الموضوع كلاماً أعجبنى ، وراق لدى فى هذا الموقف القرآنى الكريم . وهو أن سيدنا داود عليه السلام قد منحه الله تعالى معرفة أسرار تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله جلَّ جلاله ، وقد أعلمه الله أن سيدنا عيسى عليه السلام سيمنحه الله اسماً من أسمائه القدسية ، يحيى به الموتى ، ويشفى به المرضى ، ويبرىء به الأكمه والأبرص ، ويخبر به عن الغيب ، ويصنع به المعجزات الباهرات . فطلب من الله وألح عليه أن يمنحه هذا الاسم مثل سيدنا عيسى ، حتى يكتمل أمر ملكه بالتصرف فيه بهذا الاسم ، فأرسل الله عزَّ وجلَّ إليه ملكان فى صورة بشريه يحتكمان إليه فى أمر النعاج الذى قررته الاية الكريمة ، فحكم سيدنا داود حكمه على نفسه وهو لايدرى ، فصعد الملكان من بين يديه وهما يقولان لقد حكم داود على نفسه . فعلم داود أنه هو المعنى بهذا الأمر ، وأن لكل نبى حظه ونصيبه من عطاء الله ، ومن فضل الله ، فلا يجوز أن يأخذ نبى نصيب الآخر ، فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب .

وقد ربط رسول الله صلى الله عليه وسلم الشيطان يوماً على سارية المسجد عندما تعرض إليه فى صلاته ، ثم قال لاصحابه لولا أننى ذكرت قول أخى سليمان عليه السلام " **رب اغفر لى وهب لى ملكاً لاينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب** " [1] لتركته مربوطاً حتى ترونه .

وهذا الموقف فيه كثير من الاسرار والانوار ، نطوى عنها البساط حتى تسوح أرواح المقربين لمشاهدتها ، لأن العبارة لاتقوى على بيانها ، ولا الإشارة تفى بكمالاتها . نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يرزقنا

---

(١) آية (٣٥)ص .

المشاهدة بعد المكاشفة ، إنه كريم وهاب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

هذا وإن المعنى الإشارى لايؤثر على المعنى الأصلى المراد صراحة من الآية الشريفة ، ولكنه معنى زائد تشير اليه الاية الشريفة ، وقد كوشف به أهل الذوق الذين شربوا من الرحيق المختوم ، الذى أكرمهم الله به فى رياض القرآن المجيد .

٣ - (موقف سيدنا سليمان ابن داود عليهما السلام مع الجسد الذى القى على سرير ملكه)

. . ولقد ذكر الله عز وجل هذا الموقف فى قوله سبحانه ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب . إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق . ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب . قال رب اغفر لى وهب لي ملكاً لاينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب [١] .

ولقد أثنى الله على سيدنا سليمان بأنه هبة " ومنحة " من الله جلَّ جلاله لسيدنا داود . فانظر كيف تكون هبة الله عز وجل ومنحته ؟ إنها شيء عظيم جداً لايبلغ أحد وصفه ، إلا الله سبحانه ، ولذلك أثنى عليه قائلا : (نعم العبد) .

وهو ثناء من الله فى غاية الروعة والتكريم . ثم امتدحه واثنى عليه ثانياً بقوله سبحانه(إنه أواب) يعنى كثير الاقبال على الله ، دائم الرجوع اليه فى كل آن ، لاينقطع عن ذلك ولايفتر . ومع ذلك فقد اختبره الله وابتلاه بحب الخيل والاهتمام بها حتى شغلته عن ذكر الله عزَّ وجلَّ .

والذكر فى هذه الآية هو ذكر القلب ، لأن الحب يكون بالقلب ، فلما دخل حب الخيل إلى قلبه ، غلب على رعاية القلب لذكر الله عزَّ وجلَّ . وهو حال لاينبغى لنبى الله سليمان عليه السلام ، وإن كان حبه للخيل من أجل الجهاد والغزو فى سبيل الله ، فإنه لاينبغى أيضا أن ينشغل قلبه بها عن ذكر الله ، لأن ذكر الله سبحانه هو المقصود من كل عبادة ، وهو المطلوب من كل طاعة وعمل . فلايصح أن يتشاغل أحباب الله بالعبادة عن المعبود ، ولا بالقربات عن القريب ، ولا بالطاعات عن الله عز شأنه . بل إنما

---

(١) آية (٣٠-٣٥)ص.

فرضت العبادات والطاعات لذكر الله عز وجل قال تعالى : " **وأقم الصلاة لذكرى** "(١) وقال تعالى : " **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم** " (٢).

ولما أحس سيدنا سليمان بتلك الحال التى اعترته من حبه للخيل عن ذكر الله ، قال لاصحابه(**ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق**) يعنى أخذ يعقرها فى سيقانها ويذبحها ويوزعها على أهل مملكته يأكلونها - وإن الخيل قد أحل الله أكلها - وبذلك يكون قد أخرجها من قبله الذى أحبها ، وانشغل بها عن ذكر الله .

ولقد عاتبه الله على هذا الحال ، وألقاه على كرسيه جسداً من غير حس ولا حركةٍ ولاحياة ، مثل التمثال - واستمر على ذلك يوماً ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل أربعون يوماً . وكان من يدخل عليه من أهله وحشمه فيجده كذلك ، تحصل له هيبة ورهبة ، ويخرج مسرعاً . وقد حفظه الله ، وحفظ له ملكه أثناء هذا العتاب من عبث العابثين ، واعتداء المعتدين ، الى أن رد الله عليه روحه وأرجعه كما كان من غير أن يدرك احد من حشمه ورجال مملكته شيئا ، لأن معاملة الله لأنبيائه معاملة خاصة ، لم يكشف سرها الا لمن أحبهم من عباده .

وهذا معنى قوله عزَّ وجلَّ (**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب**) . يعنى ابتليناه بحب الخيل حتى انشغل بها عن ذكرنا ، فعاتبناه على ذلك وألقيناه على سرير ملكه جسداً لا حركة فيه ، ثم أكرمناه بعد ذلك باعادة الحياة اليه ، والإنابة الكلية إلينا ، وغفرنا له هذه الهفوة ، ووهبنا له هذا الملك الكبير والتصريف العجيب . وذلك معنى قوله تعالى (**قال رب اغفر لى وهب لى ملكاً لاينبغى لاحد من بعدى إنك أنت الوهاب**) فسبحان من أمره عجيب ، وشأنه أعجب .

---

(١) آية (١٤) طه. (٢) آية (١٩٨)البقرة

وإن في معاتبة الله لرسله الأكرمين أعظم دليل على حبه لهم ، وفيها أيضاً أعظم إرشاد وهدى لأتباعهم من المؤمنين والمؤمنات . قال تعالى : " **لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ماكان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون** "[1] .

---

(١) آية (١١١) يوسف .

٤ ـ (موقف سيدنا يونس عليه السلام مع قومه)

وذلك أن الله أرسل سيدنا يونس الى أهل نينوى ، فأخذ يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ، وترك ماكانوا يعبدونه من دون الله .

واستمر زمناً طويلاً مع قومه يجاهدهم جهاداً دائماً ، ويقرع آذانهم بالتذكير والمواعظ ، ولكن القوم أصرُّوا على كفرهم ، ولجوا فى عنادهم ، وطلبوا منه أن يأتيهم بما توعدهم به من العذاب إن كان من الصادقين .

وكان قد توعدهم بنزول العذاب بهم إن لم يؤمنوا ، وذكر لهم علامات نزول هذا العذاب ، وهى على ثلاثة أيام ، أول يوم تصفرّ وجوههم ، واليوم الثانى تحمرّ وجوههم ، واليوم الثالث تسودّ وجوههم ، ثم يأخذهم عذاب الله آخر اليوم الثالث . وكانوا يسخرون منه ، ويستهزؤن به ، حتى أظلتهم تلك العلامات .

وفى اليوم الثالث عندما اسودَّت وجوههم ، أيقن سيدنا يونس أن العذاب واقع بهم لا محالة ، فهرب خشية أن يصيبه العذاب معهم . ولكن الأنبياء لا يتحركون إلا بأمر الله عز وجل ، والأنبياء محفوظون بعناية الله ، وقد كتب الله لهم النجاة من الشدائد والأهوال . قال تعالى : « ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين(١)

وسيدنا يونس عليه السلام أول من يعلم بهذه الحقائق ، لأنه نبى الله ورسوله ، فكيف يهرب بعد ذلك ؟ !!

ولما نظر القوم إلى وجوه بعضهم ، وجدوها قد اسودت بعد أن احمرت واصفرت ، كما ذكر لهم يونس عليه السلام ، فدخل إلى قلوبهم رعب شديد ، وفزع مزعج ، وتحققوا بوقوع العذاب بهم ، فأخذوا يبحثون عن يونس فلم يجدوه ، فأسقط فى أيديهم ، وآمنوا

(١) آية (١٠٣) يونس .

عند ذلك بما كان يدعوهم إليه يونس من قبل ، فكشف الله عنهم العذاب لإيمانهم الصادق .

وقد بين الله ذلك بقوله سبحانه « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » (١) .

ثم نعود إلى سيدنا يونس عليه السلام ، وقد هرب إلى شاطىء البحر حيث وجد سفينة مشحونة بالمسافرين وأمتعتهم ، وطلب منهم أن يحملوه معهم ، فأخذوه واستبشروا به خيرا لما رأوه فى وجهه من علامات الصلاح والتقوى ، وهم لا يعملون أنه نبى ، ولا يعرفون من أمره ولا من أمر قومه شيئا .

فلما أبحرت السفينة ، وقطعت مسافة كبيرة ، هبت عليها رياح عاصفة ، وهاج عليها البحر هيجانا شديدا ، وصارت السفينة تهتز اهتزازا عنيفا ، وتتخبط تخبطا قويا ، وهى فى وسط البحر ولا تستطيع أن تقترب من الشاطىء ، وأصبح الركاب ينتظرون الموت فى كل لحظة تمر بهم ، فنادى مناد : إن فى هذه السفينة رجلا ظالما ، وعليه أن يلقى بنفسه فورا فى البحر لتنجو السفينة بركابها .

وإذا بسيدنا يونس عليه السلام يتقدم فورا ليلقى بنفسه ، فيمنعه الناس ويقولون له : أنت الرجل الصالح الذى نحتمى بك تلقى بنفسك فى البحر !! لا والله ، ولما لم يتقدم أحد غيره والناس يمنعونه ، والحال تشتد أكثر وأكثر ، فاقترعوا فيما بينهم ، فخرجت القرعة على سيدنا يونس ، فأعادوها ثلاث مرات ، وهى تخرج عليه ، فألقى بنفسه فى البحر ، والركاب فى حزن شديد عليه .

وسارت السفينة بعد ذلك ، وهدأ البحر ، والناس يتعجبون ، من هذا الأمر كيف يكون هذا الرجل ظالما ، والنور والصلاح يشرق

(١) آية (٩٨) يونس .

من وجهه ، ولم نر منه فى الفترة التى قضاها معنا إلا كل خير وصلاح ؟ !! . وأخذوا يتندرون بهذه الحادثة ، ولكنهم شهدوا عجبا !! فرأوا حوتا هائلا قد ابتلعه فى الحال ، بمجرد أن ألقى بنفسه فى البحر ، فلم يسقط فى الماء ، ولكنه سقط فى جوف الحوت .

مشاهد غريبة شغلت بالهم ، وكان الحوت فاغرا فاه كالباب الواسع ينتظر سقوطه فيه ، وأخذه الحوت وانطلق فى عرض البحر ، والناس ينظرون وهم فى دهشة وحيرة . ولم يعلموا أن الحوت كان مأمورا من الله بهذه المهمة الكبيرة ، وأنه صار سفينة خاصة لسيدنا يونس عليه السلام ، تحمله إلى حيث يشاء الله ، وقد قال الله للحوت : ياحوت إنى لم أجعله لك طعاما ، ولكنى جعلتك له مسجداً .

وهذه سنة الله عزَّ وجلَّ مع رسله وأنبيائه ، فقد حفظهم بحفظه ، فلم تأكل الأرض أجسادهم ، ولم تحرقها النار ، ولم تأكلها الذئاب ولا الحيتان ، ولم تغرقها البحار ، ولم تؤذها الآفات ، لأن الله قد أمر كل الكائنات أن تحفظ هذه الهياكل الكريمة المقدسة . وقد رأيت النار كيف لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام !! ، ورأيت السكين كيف لم تذبح سيدنا إسماعيل عليه السلام !! ، ورأيت الذئب كيف كان رده على سيدنا يعقوب عندما سأله : هل أكلت يوسف ياذئب ؟ فأجابه : لقد حرَّم الله علينا لحم الأنبياء يانبى الله !! . ورأيت الأسد كيف كان يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فى الطريق ، فيتمسح به كأنه يطلب حاجة من رسول الله ، فيمسح رسول الله عليه ، ويقول له أنا رسول الله ياأسد ، فيبصبص بعينيه ثم ينصرف !! ، ورأيت كيف جاءت زوجة أبى لهب بحجر ضخم تضرب به رأس رسول الله وهو ساجد أمام الكعبة ، فلم تره وهو أمامها ، وأبو بكر جالس يتعجب وهى تقول له : أين صاحبك فقد هجانى ، والله لأنتقمن منه وأضربن رأسه بهذا الحجر ، وهو أمامها

ولم تره . فقال لها أبو بكر : والله أنَّ محمداً ما هجاك وإنَّ السماء هى التى هجتك ، فرجعت مدحورة على عقبها !!

وعذراً ياأخى القارىء إن كنت قد استطردت إلى ذكر سنة الله عزَّ وجلَّ مع رسله وأنبيائه فى هذا المقام ، فإننى أحببت أن تزداد معى علماً بما تفضل الله به على رسله وأنبيائه فى هذه الحياة الدنيا ، تمييزاً لهم وتفضيلاً لهم على جميع العالمين ، هذا فى الدنيا ، « وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً »[1] .

ونرجع إلى سيدنا يونس عليه السلام ، فقد خرَّ فى بطن الحوت ساجداً لله عزَّ وجلَّ ، يعتذر إليه ويتملق إلى جنابه العلى ، ويستعطفه ويتوب إليه بهذه العبارات القدسية الرائعة « لا إله إلَّا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين [2] وأخذ يكررها ويعيدها مدة إقامته فى بطن الحوت ، ويعبد بها الله عزَّ وجلَّ ، حتى أكرمه الله تعالى وأنقذه من بطن الحوت . قال تعالى : « فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين »[3] . اللهم كما استجبت له فاستجب لنا وكما نجيته من الغم فنجنا يارب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وهذه الاستغاثة ، وهذا الذكر ، هو دعاء النجاة من كل هم وغم ، ونكد وضيق ، وشدة وكرب وبلاء . فلو أن المؤمن عندما تعتريه الشدائد والمحن يتضرع إلى الله عزَّ وجلَّ بهذا الدعاء ، لأسرع الله إليه بالإغاثة والنجاة . وكم تفضل الله على العبد الظلوم الجهول ، فأغاثه ونجاه من مصائب لاطاقة له بها . فلله الحمد والمنة ، وصدق الله العظيم « وكذلك ننجي المؤمنين »[4] . اللهم بحق رسلك وأنبيائك ، اجعل لنا نصيباً مما أكرمتهم به يارب العالمين .

---

(١) آية (٢١) الاسراء .
(٢) آية (٨٧) الأنبياء .
(٣) آية (٨٨) الأنبياء
(٤) آية (٨٨) الأنبياء

ولقد نجى الله سيدنا يونس عليه السلام ، وأمر الحوت أن يطرحه على شاطىء البحر فى مكان أمين ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، وهى شجرة القرع ذات الورق العريض الناعم ، الذى يظله من الحر والبرد ، ويحفظه من الهوام والحشرات ، حتى يسترد جسمه قوّته . وكانت تأتى إليه غزال فترضعه لبنها كل وقت ، حتى استعاد صحته وقوّته ، وأمره الله أن يرجع إلى قومه وقد كانوا مازالوا يبحثون عنه ويتلمسون أخباره ، وكانوا فى شدة اللهف عليه والحنين إليه .

ولقد ذكر الله هذا الموقف فى قوله تعالى « وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين » [1] .

ونذكر معانى المفردات فى هذه الآيات الشريفة ، تتمة للفائدة ، فمعنى (أبق) هرب ، و(الفلك) المركب ، و(المشحون) المملوء ، و(فساهم) أجرى قرعة مع ركاب السفينة ، و(المدحضين) من المغلوبين ووقعت عليه القرعة . و (التقمه الحوت) ابتلعه من غير مضغ ولا تحريك فك ، كما يبتلع الإنسان قرص الاسبرين ، و(وهو مليم) وهو لائم نفسه على هروبه من قومه بدون إذن ربه عزَّ وجلَّ ، و(للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) لمكث فى بطن الحوت واستمر فيه إلى يوم القيامة . و(فنبذناه بالعراء وهو سقيم) طرحناه وألقيناه بالأرض الفضاء الواسعة وهو هزيل ضعيف ، من آثار المكث فى بطن الحوت ، و(أنبتنا عليه شجرة من يقطين) زرعنا عليه شجرة من القرع لتحميه وتظلله . و(وأرسلناه إلى مائة إلف إو يزيدون)

---

(١) آية (١٣٩ - ١٤٨) الصافات .

هم قومه الذين هرب منهم عند نزول أمارات العذاب بهم . و(فآمنوا فمتعناهم) أبقيناهم فى عيشة طيبة هنية . و (إلى حين) إلى يوم موتهم .

وهؤلاء الذين أرسله الله إليهم بعد نجاته ، هم قومه الذين قد أرسله الله إليهم من قبل . وذلك لأن الآية التى وردت فى سورة (يونس) عليه السلام ، تفيد أن القوم الذين أرسله الله إليهم بعد نجاته مما كان فيه ، هم قومه الأصليين . قال تعالى « **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلاَّ قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** »[1] .

وقد آمنوا مرتين : مرة بعد هروب سيدنا يونس خوفاً من نزول العذاب بهم ، بعد أن رأوا أسباب العذاب قد أحاطت بهم ، وآمنوا به عليه السلام بعد عودته إليهم ، تجديداً وتأكيداً لإيمانهم الأول . قال تعالى : « يأأيها الذين آمنوا آمنوا »[2] . يعنى جددوا إيمانكم ، وزودوه بالعلم والمعرفة ، والتوبة واليقين ، والعمل الصالح .

وهكذا كان عتاب الله لنبيه يونس عليه السلام، وتكريمه له ، وإنجائه له من بطن الحوت الذى يهضم المراكب ويصهر الحديد ، ولنؤمن بقدرة الله العجيبة وخرقه سنن الكون وقوانينه لرسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، ولنزداد إيماناً بأن حياة كل رسول كانت معجزة لله عزَّ وجلَّ فى خلقه ، وآية كبرى له سبحانة فى عباده ؛ «**فسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين** »[3] .

---

(١) آية (٩٨) يونس .
(٢) آية (١٣٦) النساء .
(٣) آية (١٨٠ ـ ١٨٢) الصافات .

٥ ـ موقف سيدنا يوسف عليه السلام عند دخوله السجن

وكان دخوله السجن عليه السلام عتاباً ومؤاخذة له من الله على طلبه السجن ، وذلك حينما سأل الله عزَّ وجلَّ وقال : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه »(١) ولو قال ربى عفوك أقرب لى وأحب إلى من السجن ومما يدعوننى إليه ، لاستجاب الله له وعافاه من السجن ، ومن مكر النساء وكيدهن . ولكنه طلب السجن فاستجاب الله له . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا سألتم الله فاسألوه العفو والعافية فإن العبد لم يعط شيئاً أفضل منها »(٢) .

وإن طلب الأنبياء مستجاب ، ولو سأل أحدهم زوال الدنيا لأزالها الله له . وقد وقع ذلك فعلاً ، فقد دعا سيدنا نوح عليه السلام ربه بقوله « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديَّارا »(٣) . فاستجاب له ربه ، وأهلك الكافرين أجمعين من على وجه الأرض .

وسيدنا يوسف عليه السلام ، دارت بينه وبين امرأت العزيز ملحمة حامية ، وحرب ساخنة . كان كل منهما يجاهد قدر طاقته فى الانتصار على صاحبه ، فإنها كانت تجاهد وتستميت فى سبيل الحصول على شهوتها من سيدنا يوسف بكل الوسائل والحيل ، وكان يوسف عليه السلام يجاهد فى سبيل إقناعها بفظاعة هذا الإثم وشناعته ، وإبعادها عنه ، والفرار منها ، بكل وسيلة . وكان آخر ما فعلته امرأة العزيز فى سبيل ذلك ، إعلانها فى المؤتمر الذى عقدته لكبار النسوة اللاتى قطَّعن أيديهن عند رؤيتهن ليوسف عليه السلام ، وقالت لهن : « فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين »(٤) .

---

(١) آية (٣٣) يوسف

(٢) رواه أحمد والنسائى وابن ماجه عن أبى بكر رضى الله .

(٣) آية (٢٦) نوح

(٤) آية (٣٢) يوسف .

وهو إعلان فى غاية الجرأة والقوة ، وعدم المبالاه بأى شيء مهما كان . وكان النساء وقتئذ فى غاية الدهشة والانبهار والذهول ، حتى قطّعن أيديهن من غير شعور . وقد كنَّ يقطّعن التفاح ليأكلن ، فتغير الموقف تماماً ، وانقلب إلى حالة من فقدان الوعى وعدم الاتزان ، وطلب النسوة من سيدنا يوسف طاعة امرأت العزيز فيما تدعوه إليه ، فرفض سيدنا يوسف هذا الطلب ، وأعلن فى هذا المؤتمر الرهيب إصراره على موقفه ، ليبرِّيء نفسه أمام هؤلاء النسوة ، وقال : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم »[1] .

ودخل السجن حسب طلبه ، ومكث فيه السنين الطوال ، حتى أذن الله له بالخروج منه على حالة من الكرامة ، والشرف والنزاهة . وقرر هؤلاء النسوة أمام الملك أن يوسف بريء ، وأنهن ما علمن عليه من سوء فضلاً عن رؤيته وأنهن لم يروا منه فى الاجتماع الذى عقدته لهن امرأة العزيز ، إلاّ كل عفة وطهارة ، وإصرار على البعد والامتناع عن كل رذيلة ونقيصة ، والاستمساك بكل فضيلة وكمال .

ثم جاءت امرأت العزيز بعد ذلك ، وقررت أمام الملك أن ما قاله هؤلاء النسوة عن يوسف فهو حق وصدق ، وأنه بريء من كل شين وعيب ، وأنا التى راودته عن نفسه فاستعصم ، وإن يوسف لمن الصادقين فى كل ما يقوله ويذكره ويخبركم به ، وإننى قد ظلمته وتجنّيْت عليه فى كل ما أصيب به ، وإننى أقرر الحقيقة الآن بين يديكم ، وهو غائب عن هذا المشهد ، حتى يعلم يوسف أنني لم أخنه بالغيب ، وأننى حفظت عرضه فى غيابه ، إذ لو كان حاضراً وكذبت عليه ، لدافع عن نفسه ، ولكننى سأحترم غيبته ، ولن أخونه مرتين

---

(١) آية (٣٣ - ٣٤) يوسف

، فقد اتهمته أمام العزيز فى بداية الأمر ، ولن أتهمه مرة أخرى أمامكم وإن نفسى هى التى أساءت ، وغلبتنى وارتكبت كل هذه الأفعال السيئة ، « وما أبرّىء نفسى إن النفس لأمارةٌ بالسوء إلاّ مارحم ربى إن ربى غفور رحيم »[1] .

وقد أكرم الله سيدنا يوسف فى سجنه بالرسالة ، وعلّمه تعبير الرؤيا ، وكشف له عن المغيبات ، وأخذ يبلغ الرسالة لأهل السجن ، وأصلح الله على يديه خلق كثير ، وكان لهذا الموقف أثره البالغ بعد ذلك فى مصر وأهلها ، ورأوا فى يوسف عليه السلام منقذاً من الجدب والجوع والفقر ، الذى تهدد العباد والبلاد ، وكاد أن يهلك الحياة ويفنيها من بلاد مصر ومن البلاد المجاورة لها ، التى تعيش على فائض خيراتها ، لولا أن أغاثها الله سبحانه بسيدنا يوسف عليه السلام . « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون »[2] .

(١) آية (٥٣) يوسف

(٢) آية (١٧ - ١٨) الروم

٦ ـ موقف سيدنا هارون عليه السلام مع بنى إسرائيل عندما عبدوا العجل

وخلاصة هذا الموقف أن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم ، لما ذهب لمناجاة ربه عزَّ وجلَّ، ويتلقى عنه سبحانه التوراة ، عهد إلى سيدنا هارون عليه السلام أن يقوم خليفة عنه فى قومه ، وأن يتولّاهم بالنصح والإرشاد ، وأن يرعاهم بالتوجيه والتعليم إلى أن يعود إليهم سيدنا موسى عليه السلام .

وبعد أن ذهب سيدنا موسى لمناجاة ربه وقعت فتنة شديدة فى قومه بذل سيدنا هارون فيها قصارى جهده ليدفع شرَّها عنهم ، وأخذ يعظ ويذكِّر ويبين لهم بالحجة والموعظة الحسنة شر هذه الفتنة الشنيعة ، وعاقبة أمرهم . وقد رجع عنها خلق كثير من بني إسرائيل بسبب وجود سيدنا هارون بينهم مرشداً وناصحاً أميناً .

وتلك الفتنة هى أن السامرى لعنه الله ، كان رجلا منافقاً يعيش فى قوم موسى ومعه جماعة على شاكلته ، يظهرون الإيمان ويخفون الكفر ، كما هو الشأن مع كل نبى من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . قال تعالى : « **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً** »(١) ، فقام السامرى ومن معه من المنافقين ، وجمعوا الذهب والحلى الذى كان مع بنى إسرائيل ، وأوقد عليه فى النار حتى ذاب ، ثم صنع منه هيكلاً على صورة العجل وجعل فى جوفه أجهزة خاصة ، ووضعه على هيئة مخصوصة ، بحيث يدخل الهواء إلى جوفه فتتحرك هذه الأجهزة وتحدث صوتاً مثل صوت العجل الحقيقى ، مما جعل السُذَّج والبسطاء من بنى إسرائيل ينخدعون بذلك العجل . وقال لهم السامرى ومن معه من المنافقين : هذا إلهكم وإله موسى ، وعبدوه من دون الله .

---

(١) آية (٣١) الفرقان

وكان السذَّج والرعاع فى بنى إسرائيل كثيرون جداً بالنسبة للعقلاء منهم ، فانشغل سيدنا هارون بهم ، وأخذ يجاهد فى عودتهم إلى الإيمان بالله وبدينه القويم ، ولم يترك فرصة تمر من غير أن يبين لهم الحق والصواب ، ويوضح آثار هذه الفتنة عليهم . مرة باللين والرحمة ، وأخرى بالشدة والحكمة حتى كاد بنو إسرائيل أن يقتلوه ويتخلصوا منه ، لكثرة مضايقته لهم ، وتعرضه إليهم فى كل وقت ، بما يجب عليه إزاء هذا المنكر الشنيع . ولقد أشار القرآن إلى هذا الموقف بقوله تعالى « **ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى** »[1] .

ومعنى (فتنتم به) غررتم وانخدعتم بالعجل الذى صنعه لكم السامرى لعنه الله ، وانطلى عليكم هذا المنكر حتى حسبتوه إلهاً وعبدتوه من دون الله ، وما أمر هذا العجل فى الحقيقة إلاَّ فتنة لكم ، وابتلاء لكم ، واختبار لكم من الله ليمحِّص به إيمانكم ، وليميز الله الخبيث من الطيب ، وليظهر كل واحد منكم على حقيقته لبقية إخوانه . فارجعوا عن هذا الغىِّ والضلال ، والزور والبهتان وتوبوا إلى ربكم ، وأسلموا له ، وآمنوا به ، فإن ربَّكم هو الذى خلقكم ، وهو الرحمن الذى رباكم برحمته ، وعاملكم برأفته وحنانته . ولو آخذكم على فعلكم هذا لأهلككم فى الحال ولم يمهلكم لحظة واحدة ، لأنكم كفرتم بعد إيمانكم ، وعبدتم هذا الصنم الذى صنعه السامرى ليضلكم به ، وهو عجل لايملك لكم ضراً ولا نفعاً ، ولا يستطيع أن يجيبكم إلى ما طلبتم ، أو يرد عليكم حديثكم الذى تتحدثون به إليه . فلو كان لديكم عقل تعقلون به ، وتفكرون به ولو قليلاً لعرفتم أنه فتنة لكم ، وإبتلاء من الله لكم ، وأدركتم مايريده لكم السامرى ومن معه من المنافقين ، من الشر والخزى والبوار ، والهلاك فى الدنيا والآخرة .

---

(١) آية (٩٠) طه .

ومازال بهم هارون عليه السلام يطاولهم ويقارعهم ، ويحاورهم رجاء هدايتهم ، ولقد استجاب له الجمُّ الغفير من بنى إسرائيل . وكانت هذه هى إحدى الحِكَم التى استمر من أجلها معهم هارون عليه السلام ولم يلحق بسيدنا موسى على جبل المناجاة . مع العلم أن بنى إسرائيل لم يكفروا جميعاً ويتبعوا السامرى ، بل كان منهم من بقى على يقينه وإيمانه ولم يتزعزع .

والحكمة الثانية التى من أجلها بقى هارون مع بنى إسرائيل ولم يلحق بسيدنا موسى ، هى أنه إذا تركهم استأثر بهم السامرى ومن معه ، وأحدثوا بينهم فتناً أخرى ، وبلبلة أكبر ، ولم يوجد من يتصدى لهم ، وتفرق بنو إسرائيل أكثر من ذلك ، واتسعت الفجوة بينهم وبين المؤمنين من جهة ، وبينهم وبين بعضهم من جهة أخرى ، ولم يجتمع لهم شمل بعد ذلك . ولقد ذكر القرآن هذه الحكمة فى قوله تعالى « **قال ياهارون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعنى . أفعصيت أمرى . قال يابن أُمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى** » (١) .

ونحن نعلم أن بنى إسرائيل قوم بهت ، وأهل لجاجة وعناد ، وأهل جدال ومراء ، ولذلك كان ردُّهم المستمر وتماديهم فى عنادهم لسيدنا هارون بقولهم « **لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى** » (٢) . وكان هذا أسلوبهم وردُّهم فى كل حوار ولقاء بين سيدنا هارون وبينهم .

ولما تبين لسيدنا موسى أن هارون لم يُقصرِّ ، ولم يدخر وسعاً فى هداية قومه ، وفى تقويم اعوجاجهم ، سلَّم له موقفه هذا وأقره عليه . ثم انبرى بعد ذلك سيدنا موسى للسامرى يؤاخذه على شناعة جرمه ، وبشاعة إثمه .

---

(١) آية (٩٤) طه .

(٢) آية (٩١) طه .

ولقد علمنا من خلال موقف سيدنا هارون مايجب أن يتحلى به الداعى إلى الله عزَّ وجلَّ ، من طول الصبر على من يدعوهم ، والحكمة العالية فى حوارهم ، ومعاملتهم على أنهم مرضى مفتونون ومغرورون بحالهم ، لا يكادون يبصرون الهدى والنور إلاَّ لماماً .

وإن الداعى إلى الله يجب أن يكون رحيماً بهم ، وشفوقاً عليهم ، كل همه أن يأخذ بأيديهم مما هم فيه ، ونجاتهم من الإثم والمعصية التى توبقهم فى عذاب الله الأليم .

ولو أن الذين يكفِّرون المسلم بسبب معصية ارتكبها ، أو واجب تركه رأوْ حكمة سيدنا هارون عليه السلام فى معاملته لمن كفر بالله وعبد العجل من بنى إسرائيل ، لغيَّر أسلوبه تماماً ، ولام نفسه على قسوته وشدته فى هذا الحكم الذى حكم به على هذا المسلم . وإنما عليه أن يبين له بالرحمة واللين والحكمة ، مايحبه الله ويرضاه ، ويشوق قلبه إليه ، ويعطف نفسه نحوه ، ويثلج صدر أخيه المسلم بالرقة واللطف ، والحب والمودة ، لأنه يرجو نجاة أخيه المسلم المخالف لله ولرسوله ، ويعمل على خلاصه من ذنبه ومعصيته .

وإن لنا فى رسل الله عليهم السلام جميل الأسوة ، وكريم القدوة ، قال تعالى : **« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتولى فإن الله هو الغنى الحميد »** (١) .

---

(١) آية (٦) الممتحنة .

٧ - موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل عليه السلام .

ونذكر هذا الموقف باختصار بالغ ، وذلك أن سيدنا إبراهيم عليه السلام بلغ هو وزوجته سن الشيخوخة ، ولم يكن لهما ذرية ، وبعد أن قطع شوطاً بعيداً فى دعوة قومه إلى الله عزَّ وجلَّ ، وتمنعهم عليه ، وكفرهم واستهزائهم به ، أخذ سيدنا إبراهيم يدعو الله سبحانه ويسأله أن يهب له غلاماً صالحاً . وبين القرآن ذلك بقوله تعالى « **إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم** » (١) .

وسيدنا إبراهيم سأل الله الولد فى سِنِّ الكبر ، لأنه يرجو أن يحمل هذا النور والنبوة والرسالة من بعده ، خلف صالح ، وذرية طيبة . فاستجاب الله له ، وبشره بغلام حليم . يعنى سيعطيه مولوداً صالحاً يبلغ مقام الحِلْم إذا صار غلاماً .

والغلام هو من بلغ سنه الثامنة إلى الثانية عشر . والحِلْمُ سيد الأخلاق كما نعلم ، وهو صفة من صفاة الله عزَّ وجلَّ . فإذا كان قد بلغ درجة الحِلْم وهو غلام ، فكيف إذا كان شاباً ؟ ، وكيف إذا كان رجلاً ؟ ، وكيف إذا كان كهلاً ؟ . ولذلك لما أخبره أبوه عليه السلام برؤياه ، وقال له : « **يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى** » (٢) . لم يصبه الهلع والجزع ، ولم يصبه الطيش والخور ، وكان عليه السلام رابط الجأش ، عظيم الحلم ، قوى الصبر ، وقال على الفور : « **يأأبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين** » (٣) .

وهذا الغلام الذى بشر الله به سيدنا إبراهيم ، هو سيدنا إسماعيل عليه السلام . وشىء غريب ، غلام يعطيه الله لسيدنا

---

(١) آية (٩٩ - ١٠١) الصافات .
(٢) آية (١٠٢) الصافات .
(٣) آية (١٠٢) الصافات

إبراهيم على كبر السن ، بعد رجاء وإلحاح ، ثم بعد ذلك يأمره الله بذبحه بعد أن صار شاباً يافعاً يتكسب ، ويزاول بعض المهام ، لإعاشته وإعاشة أمه التى تعيش معه فى هذا المكان المقفر ، جوار البيت الحرام !! .

وذلك لأن قلب سيدنا إبراهيم قد تعلق بهذا الغلام ، لأنه وحيده ، وقد جاءه على كبر ، والله سبحانه غيور على قلوب أنبيائه ، لايحب أن تنشغل بشىء عنه ، ولو كان الابن الوحيد الذى يرى فيه الوالد امتداداً لعمره ، ووارثاً لنوره وسره .

فمن قبل ذلك ، أمره الله أن يتركه هو وأمه فى هذا المكان الذى لايوجد فيه أى سبب للحياة والبقاء ، وهو حينئذ طفل رضيع ، حتى يتفرغ سيدنا إبرهيم لله ولرسالته ، ورجع إلى قومه فى بلاد العراق ليواصل دعوته ، وقال : « **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** »(١) .

ولما كبر هذا الغلام وأصبح شاباً ملىء السمع والبصر ، وذو سعى وكسب وجد ونشاط ، يأمر الله سيدنا إبراهيم أن يذبحه ، وذلك حتى لاينشغل به قلبه عليه السلام مرة أخرى عن الله . وقد اطلع الله على قلب سيدنا إبراهيم وقال له : يا إبراهيم قد اتخذتك خليلى ، فإياك أن أطلع على قلبك فأجده مشغولاً بغير خليله .

والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، لم يشغلهم مال ولا أهل ولا ولد عن الواحد الأحد جلَّ شأنه . وقام سيدنا إبراهيم من فوره ينفذ رؤياه ، وهى حق اليقين . واستجاب له ابنه و« **قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** »(٢) . ورضيت بذلك أمه وقالت له : يانبى الله إن كان الله قد أمرك بذبحه ،

---

(١) آية (٣٧) إبراهيم .

(٢) آية (١٠٢) الصافات .

فامض لما أمرك الله به . وقام الأب بذبح ولده ، وقلبه يتفطر من شدة الألم والأسى على ولده ، ولكنه يمتثل أمر الله سبحانه عن رضى وارتياح .

وعبر القرآن عن هذا الموقف بقوله « **إن هذا لهو البلاء المبين** »[١] . يعنى إن أمر الله بذبح إسماعيل ، وتنفيذ هذا الأمر ، وامتثال الأب والابن والأم لأمر الله ، هو الإختبار والامتحان الشديد ، والابتلاء الكبير الذى ابتلى الله به أهل هذا البيت الكريم .

فانظر كيف يأمر الله خليله بتخليص قلبه إليه ، حتى من حب ولده الوحيد ؟ لأن الله شديد الغيرة على هذا القلب الرحيم أن ينشغل لحظة بأحد سواه . ولما تحقق ذلك ، وأخرج سيدنا إبراهيم من قلبه كل مايشغله عن الله عزَّ وجلَّ ، ناداه الله : « **ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم** »[٢] . فلما خلص القلب من التعلق باسماعيل عليه السلام لله عزَّ وجلَّ ، وأصبح حب الله هو الشغل الشاغل لسيدنا ابراهيم عليه السلام ، والمهيمن على جميع مشاعره وجوانحه ، بشره الله بإسحاق نبياً من الصالحين .

وقد ذكر الله سيدنا إسحاق فى هذه البشارة بالاسم ، لنؤمن ونعتقد أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السلام بلا ريب ولاشبهة . قال تعالى بعد انتهاء قصة الذبح : « **وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين** »[٣] . وفى هذا أبلغ الرد على من يدَّعى أن الذبيح هو سيدنا إسحاق عليه السلام ، وليس بعد بيان الله بيان .

وكانت البشارة بسيدنا إسحاق تكريماً وجزاءاً عاجلا لسيدنا إبراهيم على صبره فى هذه المحنة ، ونجاحه فى هذا البلاء العظيم .

---

(١) آية (١٠٦)الصافات .
(٢) آية (١٠٣ ـ ١٠٧) الصافات .
(٣) آية (١١٢) الصافات .

وهكذا نجد كيف كان عتاب الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام فى انشغاله عن الله بولده إسماعيل عليه السلام ، وهى معاملة خاصة من الله لرسله وأنبيائه عليهم السلام ، تخفي حكمتها على العقل ، ولكن من منحهم الله فقه كلامه عزَّ وجلّ ، يكرمهم الله تعالى باستنباط تلك الحكم من كتاب الله سبحانه . قال تعالى : « **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ومايَّذكَّر إلاَّ أولوا الألباب** »[1] .

اللهم أرزقنا العلم والعمل به ، واجعلنا من أهل الحكمة والصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) آية (٢٥٣) البقرة .

٨ ـ موقف سيدنا ابراهيم عليه السلام من تكسير الأصنام .

وإنما يتجلى هذا الموقف العظيم فى سورة الأنبياء ، حيث قال الله تعالى عن لسان سيدنا ابراهيم : « **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلاَّ كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون** »(١) .

وتبين هذه الآية الشريفة أن سيدنا إبراهيم أقسم بالله ليكيدن قومه فى أصنامهم بعد أن يخرجوا من عندها ويتركوها ، وكان القوم يجعلون لها يوماً يعظمونها ويعبدونها فيه من كل أسبوع . ولقد أبَرَّ سيدنا أبراهيم قسمه ، ودخل إلى الأصنام بفأسه وحطمها وجعلها جذاذاً ، يعنى مقطعه ومكسره ، وترك الصنم الكبير ، وعلق الفأس فى عنقه زيادة فى الكيد لقومه ، والسخرية من عقولهم .

و(**لعلهم إليه يرجعون**) يجوز أن يكون الضمير فى (إليه) لإبراهيم عليه السلام ، وعليه يكون المعنى لعلهم يرجعون لإبراهيم ليسألوه عن هذا الفعل ، فيوضح لهم سفاهة أحلامهم ، وسخافة عقولهم ، ويبين لهم أن هذه الآلهة لاتملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولانفعاً ، ولاتسمع ولاتنطق ولاتعقل ، ولوكانت آلهة لدفعت عن نفسها من كسرها وحطمها ، فكيف تعبدونها من دون الله ؟ ، وإن الذى يستحق العبادة والتعظيم هو الله الذى خلقكم ، وخلق السموات والأرض ، وكل ماترونه من الكائنات .

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله تعالى (**إليه**) راجع إلى قوله تعالى (**كبيراً**) . يعنى لعلهم يرجعون إلى هذا الصنم الذى وضع الفأس فى عنقه ، إيذاناً بأنه هو الذى هزأ ، وحطمَّ الأصنام الصغيرة ، فإنها لاينبغى أن توجد بجواره ، ولا أن تُعبد معه وأنه هو الذى يستحق العبادة وحده دونهم . وعند رجوعهم إليه سيعلمون أنهم ظلموا أنفسهم بعبادة من لايستطيع أن يردَّ عليهم سؤالهم ، أو يشفى غُلَّتهم .

---

(١) آية (٥٧ - ٥٨) الأنبياء .

فلما رجعوا إلى آلهتهم ورأوها قد تهشمت وتحطمت ، قالوا لبعضهم مستنكرين هذا الفعل ، ومتوعدين من فعله بالانتقام « **قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** »(١) . قال بعض القوم لمن سأل منهم : قد سمعنا شاباً اسمه إبراهيم يذكر الآلهة بالسوء والانتقام . « **قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون** » (٢) يعنى قال كبراؤهم وأهل السلطان فيهم : أحضروا إبراهيم أمام جميع الناس ليشهدوا عليه إقراره وإجابته عند مساءلته عن هذا الفعل ، فأحضروه وجاءوا به أمام الناس وسألوه و « **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون** » (٣) .

وفى رده عليهم وإجابته لهم عدة وجوه :

الأول : أنه أجابهم بأن الذى كسر الأصنام هو الصنم الكبير الذى وضع الفأس على كتفه كما ترون ، فإنه بعد الانتهاء من تحطيمهم وضع فأسه على كتفه تنبيهاً بأنه هو الذى فعل ذلك . وفى هذا الجواب تعريض بالقوم ، وتورية من إبراهيم عليه السلام ، ولذلك قال : (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) ، يعنى اسألوا الأصنام عن الذى حطمهم فعسى أن يجيبوكم إن كانوا يستطيعون الكلام . وفى هذا غاية التهكم بهم ، والاستهزاء بعقولهم ، وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب** »(٤) .

وقد اتبع سيدنا إبراهيم هذا الأسلوب مع قومه حتى لايجاهرهم ولا يصارحهم بما فعل فيقتلونه فى الحال ، لاعترافه صراحة أمام الناس بتحطيم آلهتهم . وقد أعطاه هذا الأسلوب فرصة لينبه فيها قومه ويبين لهم فساد عقيدتهم ، وضلال رأيهم ، وجهل عقولهم ، بالحجة البالغة ، والموعظة الحسنة ، والبيان الرائع الذى استولى على

---

(١) آية (٦٠) الأنبياء . (٢) آية (٦١) الأنبياء .
(٣) آية (٦٢ - ٦٣) الأنبياء .

قلوبهم ولو بعض الوقت ، مما جعلهم يقولون لقد ظلمنا أنفسنا بعبادة هذه الأصنام التى لاتسمع ولاتبصر ، ولاتنطق ، ولاتغنى عن نفسها ولاعنا شيئاً . وهذا هو الرشد الذى وهبه الله لسيدنا إبراهيم من قبل ، وتلك هى الحجة التى أعطاها الله له ليتغلب بها على قومه . قال تعالى : « **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** »(١) . وقال تعالى : « **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه** »(٢) .

ولقد ذكر الله هذه الصحوة العقلية من قوم سيدنا إبراهيم بقوله تعالى « **فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون** » (٣) ، وإن كانت هذه الصحوة لم تلبث إلاَّ قليلاً من الوقت ثم انقلبوا على أعقابهم ، وقالوا لسيدنا إبراهيم « **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** »(٤) أى أنت تعلم ياإبراهيم أن هذه الأصنام لاتنطق ، فكيف تطلب منا أن نسألهم ؟ وأخذوا بعد ذلك فى الاستعداد للانتقام منه عليه السلام .

وهناك توجيه آخر فى معنى قوله تعالى (**بل فعله كبيرهم هذا**) وهو أن سيدنا إبراهيم عليه السلام يقصد بأن الذى حطم الأصنام فى الحقيقة ونفس الأمر هو الله عزَّ وجلَّ ، الذى خلق إبراهيم وخلق فعله ، كما قال تعالى : « **والله خلقكم وماتعملون** »(٥) .

وفى هذا المعنى تورية كبيرة ، لأن سيدنا إبراهيم فى مقام المشاهدة الكبرى للفاعل المريد ، الكبير المتعال جلَّ شأنه . فأشار إليه سبحانه بهذا اللفظ وهو (**كبيرهم هذا**) ، إيهاماً لهم ، وتغطية عليهم ، لأنه لو قال لهم بل فعله الله ، ما صدقوا وماسلموا ، لأنهم كفار ولايؤمنون بأن الله هو الفاعل لكل شىء ، وأن الإنسان سبب فقط لإبراز فعل الله وإيجاده ، ومن أراد الله به خيراً أجرى الله أعمال الخير على يديه ، ومن أراد الله به سوءاً أجرى الله أعمال الشر على يديه ، ولله الحجه البالغة .

---

(١) آية (٥١) الأنبياء . (٢) آية (٨٣) الأنعام . (٣) آية (٦٤) الأنبياء .
(٤) آية (٦٥) الأنبياء . (٥) آية (٩٦) الصافات .

وهذا مشهد خاص ، ومعنى إشارى فى هذه الآية الشريفة ، أحببت أن أديره على أسماع أهل التسليم والذوق ، ليأتنسوا به وتسبح أرواحهم فى رياضه ، موقنة بأن سيدنا إبراهيم لم يشهد لنفسه فعلاً ولا عملاً ، ولا حالاً ولا قولاً ، وإنما شهد صلى الله عليه وسلم أن كل شيء من الله وبالله .

وإن هذا المشهد يشم عبيره أهل الله وخاصته ، والعارفون بالله عزَّ وجلَّ . وقد قال الإمام أبو العزائم رضى الله عنه مبيناً هذا المقام :

من يشهد الغير فعالاً فمنقطع ** لأنه مشرك قد مال للسفل .

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى (**كبيرهم**) كبير كل شيء ، ويكون معنى (**هذا**) إشارة إلى ما يقصده إبراهيم عليه السلام ، وهو الله الكبير المتعال .

والعبرة فى هذه المواقف العصيبة بالنوايا والقصود ، لا بالعبارات والألفاظ فقد ورد فى الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم« **إن الله لاينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم** »[1] . وورد عن رسول الله كذلك « **إن الله لا ينظر الى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر الى قلوبكم ونياتكم** »

وقال الله تعالى : « **إلاَّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** »[2] .

وهناك توجيه ثالث فى الآية الشريفة ، وهو أن كثيراً من القراء يقفون على قوله تعالى (**بل فعله**) وعليه يكون المعنى هل فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم فقال نعم فعلته . ويكون معنى (**كبيرهم هذا فاسألوهم**) أى أسألوا هذا الإله الكبير فى اعتقادكم وزعمكم ، واسألوا هذه الآلهة المحطمة فإن عندهم جوابكم (**إن كانوا ينطقون**) فإن الإله الذى يعبده العقلاء يسمع ويبصر ويتكلم ،

---

(١) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٢) آية (١٠٦) النحل .

وأنتم عقلاء فى زعمكم ، وهؤلاء آلهتكم التى تعبدونها .

وهذا التوجيه فيه غاية الإنكار عليهم ، وغاية تجهيلهم والتشنيع عليهم . وقد كان هذا الاعتراف من سيدنا إبراهيم ، ليبين لهم الأمر الذى حطم الأصنام من أجله ، وهو إقامة الحجة عليهم بكفرهم وعنادهم وضلالهم ، وتوضيح الحق الذى لاشبهة عليه لهم ، فلا تبقى لهم معذرة بعد ذلك .

واسمح لى يا أخى المؤمن إن كنت قد أطلت عليك فى هذا البيان ، فإنى رأيت أن تطلع معى على هذه المعانى ، لتزداد معى علماً بآيات الله عزَّ وجلَّ ، ومواقف رسله الأكرمين عليهم الصلاة والسلام فى مواطن الشدة والبأس ، والحرج والمشقة ، ولعل من خلال هذا العرض تسوح روحك الطاهرة فى رياض القرآن الزاهرة ، فتقتطف منها كريم المعانى وأغلى الأمانى والله وهاب كريم ، وفتاح عليم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ومع هذا كله فقد انقلبوا على أعقابهم ، ولم تنفع معهم حيلة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فأوقدوا له ناراً هائلة ، وألقوه فيها ، ولكن الله حفظه . وكان إلقاء قومه له فى النار عتاب من الله عزَّ وجلَّ له على إجابته لقومه عندما سألوه (**أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**) . وكان الأفضل والأولى أن يقول لهم صراحة بل فعلته أنا ، أوبل فعله الله ، من غير تعريض ولا تورية ، ولا تهيب منهم ولاخوف من عقابهم ، لأن الله جلَّ شأنه الذى أرسله تكفل بحفظه ورعايته ، فلم يتركه لهم ، ولم يمكنهم منه أبداً ، فلله القدرة العجيبة ، والحكمة البالغة .

وهذه النار التى أضرموها له وألقوه فيها لم تؤثر على سيدنا إبراهيم بشيء ، بل كانت له روضة من رياض الجنة العالية ، فقد سلبها الله

كل خواصها بقوله سبحانه لها « **يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم** »[1] .

فانظر كيف كان عتاب الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام فى هذا الموقف ، فلكل نبى ورسول عتاب من نوع خاص وأسلوب مختلف . والحمد لله لنا من كل موقف عبرة ، ومن كل مشهد فكرة ، ومن كل معاتبة ذكرى . نسأل الله أن يكشف عنا حجابنا ، ويزيح عنا غطاءنا ، حتى نسمع به سبحانه ، ونبصر به ، ونتكلم به ، ونفقه به جلَّ جلاله ، إنه ولينا وحسبنا ونعم الوكيل ، والصلاة والسلام والبركات على جميع الأنبياء والمرسلين .

---

(١) آية (٦٩) الأنبياء .

٩ ـ موقف سيدنا موسى عليه السلام مع المصرى الذى قتله .

وقبل أن نتكلم عن هذا الموقف ، نضع بعض الملاحظات أمام القارىء ، ليقف علي جلية الأمر .

أولاً : إن سيدنا موسى كان عند هذا الحادث غير رسول ولانبى ، لأنه وقع قبل الرسالة بأكثر من عشر سنين . فإنَّ سيدنا موسى هرب بعد وقوع هذا الحادث إلى أرض مدين بالشام ، واستمر هناك عشر سنين ، عاد بعدها بأهله إلى مصر . وفى الطريق عند جبل الطور أكرمه الله بالنبوة ، وأرسله إلى فرعون وقومه .

ثانياً : إن سيدنا موسى لم يضرب المصرى ابتداءاً ، ولكنه أخذ يمنعه عن الإسرائيلى فلم يمتنع . وهذه هى الحكمة التى سبق أن وهبها الله لسيدنا موسى قبل النبوة ، حيث قال جلَّ شأنه : « **ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً** »(١) . والحكم هو السلطان الذى يتحكم به الإنسان فى نفسه على سنن الله وأحكامه وآدابه ، وهو عين الحكمة التى يمشى الحكيم بها فى الناس ، فسيدنا موسى آتاه الله علماً ونوراً يهتدى به ، ويحكم به فى نفسه وفى غيره . وقد وجد سيدنا موسى أن المصرى لم يكف عن الإسرائيلى ، ولم يستجب له ، وأن المصرى قهر الإسرائيلى وتغلب عليه بقسوة وشدة ، وكاد أن يهلكه ، فدفعه عنه سيدنا موسى بضربة قضت عليه .

ثالثاً : إن سيدنا موسى لم يكن يريد قتل المصرى ، ولكنه أراد إبعاده عن الإسرائيلى ودفعه عنه . لأن مقتضى الحكمة والعلم اللذّيْن وهبهما الله له ، توجب ذلك التأويل ، وتفرضه على كل من يفسر آيات القرآن الشريفة المتعلقة بهذا الموضوع .

رابعاً : إن سيدنا موسى حزن حزناً كبيراً ، وتألم ألماً شديداً على وقوع هذا الحادث ، وأخذ يتوب إلى الله عزَّ وجلَّ ويعتذر إليه ، وهو نادم ومتأسف على قتله المصرى خطأ وبدون إرادة ، وهو يقول « هذا

(١) آية (١٤) القصص .

من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين »[١] . يعنى هذا القتال الذى دار بين الرجلين والذى أدى إلى قتل المصرى على يدى ، إنه من عمل الشيطان الذى أوحى به إلى كل منهما ، ثم طلب سيدنا موسى من الله المغفرة على هذا الخطأ الذى وقع منه ، فغفر الله له ، « قال رب إنى ظلمت نفسى فأغفرلى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم »[٢] .

وإنى على يقين أن الله عزَّ وجلَّ لم يجامل أحداً فى الحق ، ولو كان رسولاً ونجيّاً ، وإني على يقين كذلك أن سيدنا موسى قد نزَّهَ الله سرَّه وقلبه ، فلم ينو قتل المصرى ولم يرده . وكذلك نحن نعلم جميعاً أن الضربة الواحدة باليد لاتقتل أحداً ، وإن أدوات القتل معروفة لنا جميعاً ، فلو أن سيدنا موسى ضربه بشىء آخر غير يده ، لقال الله عنه فضربه موسى بعصاه أو بغيرها ، ولكن الله قال : « فوكزه موسى فقضى عليه »[٣] . والوكز هو الضرب بقبضة اليد .

خامساً : الخطأ إذا وقع من الأنبياء لايؤثر على عصمتهم ، لأن الخطأ هو ما وقع عفواً من غير قصد ولا إرادة ، وإن الذى يتنافى مع العصمة هو نية الشرِّ وتبييته ، وفعله عن قصد وتدبير . قال الله تعالى : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً »[٤] .

ومع العلم أن هذا الخطأ قد وقع قبل النبوة والرسالة ، بأكثر من عشر سنوات كما سبق ذكره ، فإننا نستطيع بعد هذه الملاحظات أن نذكر الموضوع كما بينه الله فى كتابه العزيز ، فقد قال تعالى فى شأن سيدنا موسى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزى المحسنين »[٥] .

---

(١) آية (١٥) القصص .
(٢) آية (١٦) القصص .
(٣) آية (١٥) القصص .
(٤) آية (٥) الأحزاب .
(٥) آية (١٤) القصص .

وذلك لما أن بلغ سيدنا موسى سن الخامسة والعشرين من عمره تقريباً ، واستوى واكتملت قواه الحسية والمعنوية ، وبلغ سن الرشد ، وهبه الله العلم والحكمة ليؤهله ويجهزه للنبوة والرسالة ، حتى يسلك فى الناس مسلك الحكماء العلماء ، فيسترعى انتباههم ، ويشدَّ إليه أنظارهم ، وذلك هو شأن الأنبياء قبل الرسالة ، فإن الله يكرمهم بالعلم والحلم ، والصبر والرضا ، والحكمة ، قبل نبوتهم ، إعداداً لهم ، واظهاراً لشأنهم بين الخلق .

وقد امتن الله بهذه الهبات من الحُكْم والعلم على أهل مقامات الإحسان ، الذين أحسنوا لأنفسهم وأحسنوا لغيرهم ، وراقبوا جلال الله عزَّ وجلَّ ، وأخلصوا له فى عبادته ، وطهروا قلوبهم لحضرته . نسأل الله سبحانه أن يجعلنا جميعاً منهم بجاه رسله وانبيائه عليهم الصلاة والسلام .

قال تعالى مخبراً عن سيدنا موسى عندما دخل مصر : « **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين** »[١] .

والمعنى الإجمالى لهذه الآية الشريفة : أن سيدنا موسى عليه السلام ، بعد أن وهبه الله العلم والحكمة ، دخل مصر يوماً كعادته ، وكان له عمل خارج البيوت والمنازل والحوانيت والمتاجر ، وقد كان عائداً من عمله فى ساعة الظهيرة والناس قائلون ، فوجد مصرياً وإسرائيلياً يقتتلان ، يعنى يتشاجران ويضربان بعضهما بشدة وقسوة ، لدرجة أن كلاً منهما يكاد يقتل صاحبه ، فلما رأى الإسرائيلى موسى عليه السلام ، استغاث به وطلب أن ينقذه من المصرى . وكان المصريون آنذاك أعداء للاسرائيليين ، ولكن سيدنا موسى لم تحمله هذه العداوة العامة على الانتقام من المصرى ـ لأن الله قد وهبه

---

(١) آية (١٥) القصص .

العلم والحكمة ـ فأخذ يدفعه عن الإسرائيلى بالهوادة واللين وفض الاشتباك بينهما ، ولكن المصرى أصر على التشفى والانتقام من الإسرائيلى بحكم أنه صاحب البلد ، وأهل القوة فيها ، (فوكزه موسى) رجاء أن يدفعه عن الإسرائيلى ـ وقيل إن الوكز هو الضرب اليسير ـ ولكن أجله كان قد انتهى (فقضى عليه) فمات من وكزة موسى عليه السلام .

فتأثر موسى تأثراً بالغاً ، وتحسر تحسراً شديداً ، وأخذ يستعطف الله ويسترحمه ، لأنه قد قتل نفساً خلقها الله عزَّ وجلَّ . وإن كان من قتل حين مدافعته ومنعه من الظلم والتعدى ، لاشىء على قاتله . فإن الإنسان إذا اعتدى عليه معتد يريد قتله ، فدافع عن نفسه فقتله ، لاشىء عليه . ولكن مع هذا كله فقد قام سيدنا موسى يتذلل إلى الله ، ويتمسكن إليه ، ويسأله العفو والمرحمة ، فاستجاب الله له . وذلك من باب قول أهل المعرفة بالله .

هفوة العارفين أكبر ذنب ** فهى نار إن لم تنل غفرانا

ومن باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وقد ذكر القرآن هذا التملق والتضرع بقوله جلَّ شأنه « **قال رب إنى ظلمت نفسى فأغفرلى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين** »(١) . يعنى يارب أقسم بما أنعمت به على من العفو والمغفرة عن خطأى أن لا أعين مجرما بعد ذلك أبداً ، فإنى قد تبت إليك وبرئت إليك من كل خطيئة وذنب .

وفى قوله تعالى (للمجرمين) دليل على أن الإسرائيلى الذى كان يقاتل المصرى مجرم ، يزاول أعمال الاعتداء والظلم وسفك الدم ، لأنه بعد هذه الحادثة بيوم واحد ، وجده سيدنا موسى يرتكب جريمة التشاجر والقتال مع مصرى آخر واستصرخ سيدنا موسى كذلك

(١) آية (١٦ - ١٧) القصص .

عليه ، فقال له موسى « **إنك لغويٌّ مبين** »[١] . يعنى إنك لشديد الغى . والغى هو التمادى فى الضلال والظلم . والغويّ أيضاً هو الذى يضل غيره ويغويه بمكره وأضاليله . و (مبين) يعنى مجاهر بغيك ، ومتفضح به .

وقد بين الله هذا الحادث الثانى بقوله جلَّ شأنه « **فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى أستنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين** »[٢] . وقد أصبح سيدنا موسى بعد هذا الحادث مقيماً فى مصر على خوف وحذر ، وينتظر وقوع الضرر به من أهل القتيل أو الحاكم . ومعنى يستصرخه يستنجد به ويستعديه عليه .

وقد أراد سيدنا موسى أن ينتقم من الإسرائيلى المجرم الغويّ الذى تسبب فى قتل إنسان بالأمس ، وهو اليوم يقاتل رجلاً آخر من المصريين ويستعدى سيدنا موسى عليه أيضاً كما فعل بالأمس . وقد صار هذا الإسرائيلى بذلك عدواً لموسى ، حيث انه يطلب منه أن يعينه على إجرامه وغيه وظلمة ، وهو أيضاً عدو للمصرى الذى يقاتله . وذلك معنى قوله تعالى « **فلما أراد أن يبطش بالذى هو عدوٌ لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلاَّ أن تكون جباراً فى الأرض وماتريد أن تكون من المصلحين** »[٣] .

فكان الجزاء العادل لهذا الإسرائيلى المجرم أن يبطش به سيدنا موسى ، ليريح الناس من شره وإجرامه وفساده ، كما قال تعالى : « **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزىٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** »[٤] .

---

(١) آية (١٨) القصص .
(٢) آية (١٨) القصص .
(٣) آية (١٩) القصص .
(٤) آية (٣٣) المائدة .

ولما همَّ موسى بالانتقام من الإسرائيلى دفعه عن نفسه بكشف جريمة الأمس ، وشهادته على سيدنا موسى بجناية الأمس ، وكان أمرها لم يعرفه أحد لأن الناس كانوا فى غفلتهم وراحتهم أثناء وقوع الحادثة ، فلم يشهدها أحد منهم ، وكان رجال الحكم يبحثون عن القاتل ، فالتقط هذا المصرى الخبر وفرَّ بسرعة إلى باب فرعون وأبلغ المسئولين به ، وهو خبر لاشك فيه حيث أن الذى أخبر به رجل من قوم موسى وشيعته . فأمر فرعون بقتل سيدنا موسى ، وأرسل الجنود فى طلبه ، ولكن الله سبحانه أنجى سيدنا موسى ، وهرب قبل أن يدركه جنود فرعون .

ولايجوز أن يقول أحد إن موسى أراد أن يبطش بالمصرى الذى استصرخه الإسرائيلى عليه ، وذلك لأن سيدنا موسى كان بالأمس القريب يعتذر إلى الله ويتوب إليه من القتل الذى وقع منه خطأ ، من غير إرادة ولاقصد ، وقد تاب الله عليه وغفر له ، واليوم يريد ويقصد إلى ارتكاب هذه الجريمة النكراء !! ، مع العلم أن مجرد إرادتها فى حد ذاته جريمة ، فكيف يكون ذلك ؟ !! حاشا لسيدنا موسى عليه السلام . ولكن الحق الذى نلقى عليه الله عزَّ وجلَّ ، ونقابل به سيدنا موسى غداً فى الدار الآخرة ، هو ما قررناه وذكرناه فى هذا الموقف . نسأل الله من فضله أن يرزقنا الفقه فى دينه ، وأن يمنحنا تأويل كتابه ، إنه سميع قريب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ولقد عاتب الله سيدنا موسى على هذا القتل الخطأ بتهديد فرعون له بالقتل ، ومطاردة الجنود له فى كل مكان ، وهو طريد شريد وحيد . لايدرى أين يذهب . ثم باشتغاله أجيراً عند سيدنا شعيب ، وقد كان سيداً عظيماً فى قومه بنى إسرائيل ، حيث أنه كان من بيت النبوة الذى تدين له بنوا إسرائيل بالولاء والطاعة ، ثم قضائه عشر سنين متغربا عن أهله ووطنه الذى نشأ فيه ، وغير ذلك من وعثاء السفر ، ومخاوف الطريق ، وعدم الرفيق . وكل هذه الأشياء تهذيب وتأديب وتزكية لسيدنا موسى ، وعتاب له من الله

سبحانه على خطئه الذى وقع منه عفواً .

وقد يسأل سائل فيقول كيف يعاتب الله سيدنا موسى وقد غفر له ماوقع منه ؟ .

فنقول له : إنَّ مقام سيدنا موسى يقتضى ذلك لمكانتة من الله عزَّ وجلَّ ، ولأن هذا الخطأ لو وقع من غيره لاشىء عليه غير دفع الفدية لأهل القتيل ، لأنها ليست من الذنوب التى توعَّد الله فاعليها بالعذاب .

والمغفرة هى ستر الذنب وعدم ذكره ، حتى كأنه لم يكن ، ولكن مغفرة الله لرسله وأنبيائه من نوع آخر ، إذ أنها تشريف من الله لهم ، وتقريب وتكريم لهم ، لأن الله قد ذكر ماوقع منهم وجعله ذكراً ونوراً وهدى للمؤمنين حتى تقوم الساعة . فسبحان من عامل رسله وأنبياءه بما يليق بجلالهم وعظمتهم عنده عزَّ وجلَّ وعند عباده .

غير أن هناك ملاحظة دقيقة جداً يجب لفت الأنظار إليها ، وهى أن المغفرة كانت من الله لرسله بعد وقوع الهفوات والأخطاء واعتذارهم إلى الله واستغفارهم . أما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد منحه الله عفواً مسبقاً عن كل مايقع منه من هفوات ، وذلك تمييزاً وتفضيلاً له ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن سائر المرسلين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قال تعالى : « **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات** »[1] . اللهم زده صلى عليه وسلم تشريفاً وتعظيماً ، وآته الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة ، وابعثه الله المقام المحمود الذى وعدته ، إنك لاتخلف الميعاد .

---

(١) آية (٢٥٣) البقرة .

١٠ ـ موقف سيدنا موسى مع العبد الصالح (الخضر عليه السلام) .

وقبل أن نتكلم على هذا الموقف الكريم ، نضع بين يدى المطلع عليه هذه النقاط ، لأنها فى غاية الأهمية ، حتى تنكشف المعانى الغامضة لطالب العلم الالهى ، والأسرار المكنونة لمن أراد المزيد من فضل الله سبحانه .

النقطة الأولى : نعلم جميعاً أن سيدنا موسى عليه السلام رسول من أولى العزم ، وهم أئمة الرسل عليهم السلام . ونعلم كذلك أنه نجىُّ الله وكليمه وصفِيُّه ، فله من المكانة الرفيعة ، والدرجة العالية بين الأنبياء والمرسلين ، مالا يستطيع أحد أن ينساها أو يتجاهلها .

النقطة الثانية : نحن نؤمن جميعاً بأن أى رسول فى زمنه هو منة الله وفضله ، ونعمته ورحمته ونوره لأهل هذا الزمن ، وأن الناس يستظلون بظله ، ويعيشون فى نوره وهداه ، إلى أن يبعث الله رسولاً آخر .

النقطة الثالثة : نعلم كذلك أن الأفراد البارزين والصديقين والمقربين ، والشهداء والربانيين ، والعباد الصالحين الذين برزوا وظهروا فى زمان أى رسول وتحدثت عنهم الكتب السماوية أو التاريخ ، فإن هؤلاء الرجال كانوا من المؤمنين بذلك الرسول ، ومن خاصة أتباعه ، ومن المستمدين منه ، والمهتدين بهداه ، والمستنيرين بنوره ، وأن هؤلاء الرجال لم يستظهروا يوماً من الأيام على رسلهم وأنبيائهم ، لكمال يقينهم أنهم من غير رسلهم لم يكونوا شيئاً ، ولم يسعدوا بشىء مما هم فيه .

النقطة الرابعة : نعلم أيضاً أن رسالة أى رسول هى فيض هاطل ، وغيث مدرار ، وأن كل عبد من عباد الله الصالحين الذين يعيشون فى ظل هذه الرسالة قد أصابه قسط من هذا الغيث والفضل الإلهى ، فكان هذا حظه من رسالة الرسول ، ونصيبه من هذا

الميراث الإلهى ، وذلك لوسعة الرسالة .

النقطة الخامسة : اختص الله كل رجل من هؤلاء العباد الصالحين بجزء من هذا الميراث الإلهى وبرز فيه ، فكان مرجعاً فى هذه الناحية من الرسالة ، حتى فى حياة الرسول نفسه ، وإن كل رسول فى قومه كان يحترم هذه الخصوصيات ، ويعطى لكل رجل قدره ومنزلته ، قال صلى الله عليه وسلم : « **أنزلوا الناس منازلهم** »(١) وقال صلى الله عليه وسلم : «ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه»(٢) .

وقد برزت هذه الخصوصيات فى زمن رسول الله عليه وسلم ، ونَبَّهَ عليها بقوله : «إن لكل أمة أميناً ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»(٣) ، وقوله عليه الصلاة والسلام «خالد بن الوليد سيف الله وسيف رسوله ، وحمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، وأبو عبيدة بن الجراح أمين الله وأمين رسوله ، وحذيفة بن اليمان من أصفياء الرحمن ، وعبد الرحمن بن عوف من تجار الرحمن»(٤) وقوله عليه الصلاة والسلام «إن لكل أمة حكيماً ، وحكيم هذه الأمة أبو الدرداء»(٥) .

وبناء على ماتقرر ، فقد تبين لنا أن سيدنا الخضر عليه السلام كان عبداً من عباد الله الصالحين المؤمنين بسيدنا موسى ، والمتبعين لشريعته ورسالته ، ولكنه لما أخلص لله فى العمل والعبادة ، ولسيدنا موسى فى الاقتداء والمتابعة ، أكرمه الله عزَّ وجلَّ بمحبته ، وعلمه مالم يكن يعلم من الغيوب والأسرار . قال صلى الله عليه وسلم : «من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم»(٦) . وقال جلَّ شأنه : «قل

---

(١) رواه أبو داود من حديث عائشة .

(٢) رواه أحمد والطبرانى والحاكم عن عباده بن الصامت .

(٣) رواه البخارى عن أنس وبن أبى يعلى وأبو نعيم والخطيب عن عمر .

(٤) رواه الديلمى عن ابن عباس .

(٥) رواه ابن عساكر عن جعفر بن نصر مرسلاً

(٦) رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس .

إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله»[١] . ومن يحبه الله يؤثره بالخير والبر ، والعلم والهدى ، على كثير من عباده المؤمنين .

وقد حدث فى ذات يوم ، أن سيدنا موسى عليه السلام أخذ يخطب قومه ، ويذكرهم بالله وبأحكامه وآدابه ، حتى استولى حديثه على القلوب ، فتأثرت تأثراً بليغاً ، واهتزت النفوس ، واقشعرت الجلود ، وبكت العيون بكاءاً كثيراً . ولما فرغ من حديثه ، قال له أصحابه : يانبى الله لقد سمعنا اليوم منك علماً وبياناً رائعاً ، فهل هناك أحد أعلم منك ؟ فقال سيدنا موسى : أنا أعلم الناس ، فعاتبه الله عزَّ وجلَّ على هذه الكلمة . لأن الأولى له ، والأجدر به أن يقول : الله أعلم منى . فأوحى الله إليه : ياموسى إن فى مجمع البحرين عبداً لى أعلم منك .

فأخذ سيدنا موسى فى السفر إليه على الفور ، لأنه علم أنه أخطأ فى هذه الكلمة التى قالها ، وأن الله سبحانه أراد أن يلفت نظره إلى أن هناك من الناس المؤمنين بك من أوتى علماً لم يبلغك خبره ، ولم ينزل إليك فى التوراة التى معك ، وإن كان قد ناله بسببك ، وبفضل الإيمان بك وبما جئت به .

وهنا لطيفة لابد من الإشارة إليها : سيدنا موسى لم يقل أنا أعلم فقط ، بل قال أنا أعلم الناس ، ومع ذلك فقد عاتبه الله سبحانه . لأنه عليه السلام فى أعلى مراتب القرب من الله ، وأكمل درجات الرعاية لجنابه العلى ، فكيف يسهو نفساً ويقول أنا أعلم الناس ولم يقل الله أعلم ؟

وابتدأ سيدنا موسى السفر إلى هذا العبد الصالح رضى الله عنه ، وقص القرآن علينا أخبار هذه الرحلة ، فقال الله تعالى : «**وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً**»[٢] .

---

(١) آية (٣١) آل عمران .

(٢) آية (٦٠) الكهف .

والفتى هو الشاب القوى الذى يقدر على حمل الأمتعة والسفر بها . وقد أمره سيدنا موسى أن يسافر معه فى هذه الرحلة ، وأن يحمل معه الزاد والشراب والفرش واللحاف ، وقال له إعلم أننا سنواصل الأسفار والمسير من غير توقف ، ولانبرح كذلك حتى نصل إلى مكان التقاء البحرين ، ولو أمضينا فى ذلك السفر حقباً ، يعنى ثمانين عاماً .

ومجمع البحرين كان بدمياط حيث يلتقى البحر الأبيض المتوسط بنهر النيل ، وسيدنا موسى كان يعيش فى مصر مع قومه أثناء هذه الحادثه . **وفى قول الله تعالى (مجمع البحرين) إشارة كريمة إلى حقيقة العبد ، الذى جمع الله فيه بحر الحقيقة ـ وهو الملح الأجاج الذى لم يقو على الشرب منه أحد إلاّ إذا تصفى من ملحه ، أو مزج بماء النهر العذب الفرات ، وهو الشريعة السائغة لجميع الناس ، والذى لم يختلف عليها أحد لملائمتها للعقل والعادة والعرف .**

والعبد الكامل قد مزج الله له البحرين ليتناول منهما مايحيى به كل الحقائق التى خلق منها ، من جسم وحس ، وعقل وروح ، وقلب وسِرّ . وهذا العبد يعطى من شرابه هذا من كان على شاكلته ، ومن كان يريد الحياة الكاملة لجميع قواه ومعالمه .

وهذا المعنى الإشارى زائد عن المعنى الأصلى للآيه الشريفة ، فإن أخذته معك فهو خير ، وإن تركته فلا بأس عليك . وإنما ذكرناه على سبيل التفكر والاستملاح .

قال تعالى : «فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا»(١) . وكان الزاد الذى أعده سيدنا موسى وفتاه لهذه الرحله حوتاً كبيراً مشوياً ، يأكلان منه كلما جاعا . وعند مرورهما على مكان العبد الصالح وكانا قد جلسا هناك يستريحان بعض الوقت ، وكان الحوت فى ماعون معهما ، فأحيا الله الحوت وخرج

(١) آية (٦١) الكهف .

من الماعون ، ونزل إلى البحر وهما لايشعران ، وكانت هذه الآية هى علامة العثور على العبد الصالح . ثم استأنفا السفر بعد ذلك .

وهنا إشارة وهى أن نسيان الحوت يشير إلى أن طالب العلم الربانى يترك حظه وشهوته ، وأمله وطمعه ، بل يفنى عن بعض لوازمه وضرورياته التى يحتاجها الجسم من راحة وأكل ، وشرب ونوم ، ويقبل على العالم العامل بقلب فارغ من كل ذلك ، ليتلقى العلم المكنون . وفى الحكمة : (إذا التقيت بالعارفين فتخل عن علمك لكى تنتفع بالعلم المكنون) .

وفى حياة الحوت ، واتخاذه سبيله فى البحر سرباً ، إشارة إلى أن هيكل الإنسان إذا نزلت عليه مياه العلم الحقيقى والحكمة القدسية ، احتيا حياة طيبة ، ومشى على الصراط المستقيم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصالحين .

وفيه إشارة أيضا إلى أن العبد الصالح ، والعالم العامل ، عنده ماء الحياة الحقيقية ، وأن كل من وصل إليه مسلماً وخاضعا ، أحياه الله على يديه حتى ولو كان حوتاً .

قال تعالى **«فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا»**[1] . يعنى فلما انتقلا من مكان الصخرة وتركاه بمسافة بعيدة ، طلب سيدنا موسى من يوشع عليهما السلام الغذاء .

وهنا إشارة وهى أن من يطلب العلم اللدنى ، ويبحث عن العبد الذي وهبه الله هذا العلم ، سيجد تعباً ونصباً وعناءاً ، وأنه لابد أن يتذرع بالصبر الجميل ، حتى يصل إلى بغيته . كذلك لابد له من الإقتصار على الكفاف والضرورى ، من المأكل والمشرب وغيره ، حتى يعوضه الله عن هذا كله بما يغذى روحه وعقله ومشاعره .

---

(١) آية (٦٢) الكهف .

فردَّ يوشع على سيدنا موسى بقول الله عزَّ وجلَّ «**قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلاَّ الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا**»(١). وهذه الصخرة تنبع منها عين ماء يحيا به كل ميت أصابه شىء من هذا الماء ، وقد جلس سيدنا موسى يتوضأ من هذه العين ، فتطاير من ماء وضوئه بعض الزذاذ ، فوقع على الحوت فاحتيا بإذن الله ونزل إلى البحر . وكان يوشع فى غفلة عن الحوت وعن المتاع الذى يحويه ، لانشغاله ببعض المناظرَ الموجوده بهذا المكان والتفرج عليها ، وهذه غريزة حب الاستطلاع ، وقد سماها يوشع عليه السلام بالشيطان ، وسار الحوت فى البحر بصورة مدهشه وعجيبة .

وكان الواجب أن لا يَنْسَ يوشع هذا الأمر حيث أنه خارق للعادة والسنة الكونية ، ولكن يوشع عليه السلام نسى أن يذكر أمر الحوت لسيدنا موسى لأنه ساعتها كان فى صلاته ، ويوشع فى تأملاته بمناظر الطبيعة الأخاذة ، فلما انتهى موسى من صلاته مشيا على الفور ، ونسى يوشع أمر الحوت ، فلم يتذكره إلاَّ حين أن طلب سيدنا موسى منه الطعام ، فأعلمه بأمره ، فقال له موسى «**ذلك ماكنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا**»(٢) .

يعنى هذا المكان الذى احتيا عنده الحوت هو الذى نطلبه ونبحث عنه ، فارجع بنا حالاً إليه ، فأخذا يتبعان أثرهما ويقصانه ، أى يتفقدانه حتى لايضل الطريق منهما .

وفى هذا المعنى إشارة إلى أن طالب العلم النافع ، لا يشغله عن طلبه القوت الضرورى ، بل يسعى إليه فوراً عندما يجد من يقدمه إليه . فإن سيدنا موسى لم يطلب من خادمه أن يبحث له عن طعام بدل الحوت ، مع أنه فى أمس الحاجة إليه ، ولكنه رجع مع فتاه فوراً يسعيان إلى مكان العالم الربانى ، فلما وصلا إلى الصخرة وجدا

---

(١) آية (٦٣) الكهف .

(٢) آية (٦٤) الكهف .

الخضر عليه السلام . قال تعالى ، **«فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما»**(١) .

وبعد الجهد المضنى والبحث الجاد ، والعناية الكبرى فى طلب العبد الصالح ، عثر عليه سيدنا موسى ويوشع عليهما السلام . والعثور على الضالة بعد طول التحرى والبحث عنها ، تكون له فرحة وبهجة لاتقدر . ومن فضل الله عزَّ وجلَّ على المؤمنين أنه قال : (عبداً من عبادنا) يعنى هم كثيرون والحمد لله ، وقائمون فى كل زمان . ولكن يكرم المؤمن بالعثور على الفرد منهم بعد التحرى والصدق فى طلبه ، وقد يكون أحدهم معك ولا تفطن إليه لأنك لاحاجة لك به ، ولأن العلم يجب طلبه والسعى إليه ، والعلم عند أهله .

وقد أكرمنا الله تعالى وبين لنا صفات هذا العبد ، ووضح لنا علاماته ، حتى لانختلف عليه إن وجدناه . فهذه الدلائل إن وجدناها فى فرد من الأفراد عرفنا أنه العبد المطلوب ، والفرد المحبوب ، به تعلو الهمة ، وتنكشف الغمة ، وتظهر الحجة ، وتتضح المحجة . فيا سعادة من عثر عليه ، ويا هناءة من يفوز بلقائه ، فقد قال بعض هؤلاء العبيد : (طوبى لمن بالرضى والبشر يلقانى) .

وهذه الأوصاف إحداها أن الله سبحانه أعطاه ووهبه رحمة من عنده ، وهذه الرحمة تتسع لعباد الله الذين يتصلون به ويتعاملون معه ، وهذه الرحمة يعطف بها على عرفائه وجلسائه وطلابه ، فيدخلون فى كنفها ، وهذه الرحمة رقة فى القلب ، وشفقة ملأت جوانحه يأخذ كل حى منها نصيبه كل بحسبه من إنسان وحيوان وطير ، مسلم وكافر ، ومقبل عليه ومعرض عنه .

---

(١) آية (٦٥) الكهف .

وإذا كانت هذه الرحمة من عند الله ، فهى لا نهاية لها ، لأن ما عند الله لاينفذ ولا يزول . وهذه الرحمة يعطى منها الناس عن علم ومعرفة ، وبقدر ما يحتاجون منها ، فخرق السفينة رحمة ، وقتل الغلام رحمة ، وبنيان الجدار رحمة ، وكل ذلك عن علم ومعرفة ، وبأمر له من الله عزَّ وجلَّ .

وهذا العبد ليس فظا ولا غليظا ، ولا قاسياً ولا جافياً ، ولا صخاباً ولا لعاناً ، ولا همازاً ولا لمازاً ، ولا مغتاباً ولا نماماً ، ولا متبرماً بأحدٍ من عباد الله ، ولا مستهيناً ولا مستهزءاً بأحد ، بل هيناً ليناً ، سمحاً كريماً ، حليماً صبوراً ، شكوراً ستوراً عفواً .

والصفة الثانية بينَّها الله بقوله سبحانه (وعلمناه من لدنا علماً) . وناهيك بعلم علمه الله سبحانه بنفسه لعبد من عباده ، فكيف يكون هذا العلم ؟ وكم يكون مقدار هذا العلم ؟

إنه علم أكرمه الله به من حضرة اللدنية ، وحضرة اللدنية هى أرقى منازل القرب من الله عزَّ وجلَّ . ومعنى ذلك أن الله يرفع العبد المراد إلى هذه المنزلة ، ويعلمه من علمه المكنون ، وسره المصون ، علماً خاصاً به دون غيره . وعلم الله لاحدَّ له ولا عدَّ ، ولا حظر عليه ولاحجر .

ومعنى كون العلم من لدن الله ، أن الله لا يطلع عليه أحداً من خلقه ، وانما يكون من الله لعبده مباشرة من غير واسطة ، إما بإلهام وإما برؤيا منام ، وإما بسماع الهواتف الروحانية ، وإما بالتلقى من هذا العبد الذى وهبه الله العلم والرحمة .

أخى القارىء : معذرة إن كنت قد أطلت عليك ، فإننى أشعر أننى قد أسرفت فى هذا المقام ، ولكننى رأيت أنه لابد من بيان هذه المعانى حتى نوفى المقام حقه من جهته ، وتتم إفادة القارىء من جهة أخرى . وبنيتكم ترزقون .

ثم بعد ذلك طلب سيدنا موسى من الخضر عليهما السلام أن يأذن له فى مصاحبته واتباعه ، ليتعلم منه العلم اللدنى الذى علمه الله له . وبعد حوار دار بينهما ، وبعد إملاء شروط الصحبه من سيدنا الخضر عليه السلام ، وقبولها من سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم ، أذن سيدنا موسى عليه السلام لفتاه بالانصراف إلى شأنه وأهله ، ثم ابتدأت الرحلة المباركة ، ودارت فيها أحداث هائلة ذكرها القرآن المجيد ، وبمشيئة الله تعالى سنفرد لها بحثاً خاصاً نبين فيه أخبارها .

فانظر ياأخى الكريم إلى كيفية معاتبه الله لسيدنا موسى فى هذا الموقف ، الذى أفاض علينا العلوم والمعارف السامية ، فقد تناولنا منه شراباً طهوراً ورحيقاً صافياً ، شفى الله به الصدور ، ونور به القلوب ، ولقد صدق الله العظيم حيث يقول فى شأن رسله وأنبيائه ومن والاهم : "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده"[1] .

اللهم ارزقنا اتباعهم وحسن الاقتداء بهم ، إنك مجيب الدعاء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) آية (٩٠) الأنعام .

١١ ـ موقف سيدنا يعقوب عليه السلام مع أبنائه .

وإن من نكد الدنيا وبلوائها ، أن يبتلى الرجل الصالح بأبناء لايتعاونون معه على البرِّ والتقوى ، ولا يتركونه فى حاله ، وفى صلاحه وإصلاحه ، ليقوم وحده بعمل الخير مَا استطاع إليه سبيلاً ، وعلى قدر طاقته ، بل يحاربونه ، ويعاندونه ، ويعترضون سبيله ، وهو صابر ومحتسب ، ويجاهد فى حملهم على الهدى والإحسان والاستقامة بكل حيلة وحكمة ، وهم سادرون فى جهلهم ، متمادون فى سفههم ، مصرون على مخالفتهم .

فما أتعس هذا الأب ، ومِاأسوأ حظه مع هؤلاء الأبناء الذين شقى بتربيتهم ، وعانى الأهوال والشدائد من أجلهم ، وارتكب المخاطر والصعاب فى سبيل إسعادهم .

لقد كان سيدنا يعقوب عليه السلام ، وهو النبى والرسول الكريم على ربه ، قد ابتلاه الله بأولئك الأبناء . لم يرحموا ضعفه وشيخوخته ، ولم يرعوا حق نبوته ورسالته وأبوته كذلك ، لم يدركوا معانى الأخوة والنسب الذى بينهم وبين يوسف عليه السلام .

ولكن الله تاب عليهم وعفا عنهم ، وسامحهم سيدنا يوسف وقال لهم : "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"(١) . ومعنى لا تثريب عليكم : لا بأس ولا لوم عليكم ، ولا مؤاخذة منى لكم . وسامحهم كذلك أبوهم ، وأخذ يستغفر الله لهم ـ والله غفور رحيم ـ وقال لهم : "سوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم"(٢) .

ما أشد قسوتهم على يوسف وعلى أبيهم ، وما أعظم رحمة يوسف ورحمة أبيهم بهم . متناقضات بعيدة جداً ، ولكن الله ذو حكمة عالية فى كل ذلك ، حتى نعلم ما لم نكن نعلم من هذه القصة

(١) آية (٩٢) يوسف .

(٢) اية (٩٨) يوسف .

العجيبه ، ونأخذ منها العبر والمواعظ ، ونستقيم بها على أمر الله ورسوله ، ونهتدى بها إلى الصراط المستقيم . فكم من بلية انطوت على العطية ، وكم من محنة اشتملت على المنحة ، وكم من شدة جاء بعدها اليسر والرخاء .

وكان سيدنا يعقوب عليه السلام قد أنجب اثنا عشر ولداً من عدة نساء ، وكان سيدنا يوسف وأخوه بنيامين من أم واحدة ، وهى آخر من تزوج بها سيدنا يعقوب من النساء ، وكان سيدنا يوسف أصغر الأبناء سناً وكان قد أُعْطِىَ شطر الحسن والجمال ، كما ورد فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إن النسوة لما رأينه ذهلن وقطعن أيديهن بالسكاكين التى يقطعن بها الفاكهة ليأكلنها ، وقلنَ : "ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم"(١) .

وكان سيدنا يعقوب يحبه أكثر من باقى إخوته ، لصغر سنه ، ولما رأى فيه من مخايل الذكاء والفطنة ، وما رآه أيضاً فيه من رعاية الله له وكشف المغيبات له بطريق الرؤيا المنامية ، عندما أخبر يوسف أباه أنه رآى فى منامه ماذكره الله بقوله "إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين"(٢) .

فعبر له أبوه رؤياه وقال له : يابنى إن الله سيصطفيك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك بالنبوة والرسالة ، كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق ، وأوصيك يابنى أن لاتخبر أحداً من إخوتك بهذه الرؤيا فيحسدونك ويدبرون لك المكايد ، لأنهم ليسوا معصومين ، وإن الشيطان يلعب بهم ويزين لهم هذه المكايد والمؤمرات ضدك ، وقد تحققت هذه الرؤيا بعد حين كما عبرها سيدنا يعقوب عليه السلام .

---

(١) آية (٣١) يوسف .
(٢) آية (٤) يوسف .

وشيء عجيب يرى يوسف إخوته فى الرؤيا أنهم كواكب ، والكواكب من شأنها الإضاءة والإنارة ، وذلك يعنى أنهم من أهل الصفاء والإشراق . وفعلاً كان ذلك بعد نبوتهم ، ومسامحة يوسف وأبيه لهم ، فكانت نهايتهم كريمة مشرقة ، إكراماً لأبيهم ويوسف عليهما السلام . والشمس هو أبوه والقمر أمه عليهما السلام .

وقد اجتمع إخوة يوسف من أبيه ، وتآمروا عليه ، وقد ذكر الله ذلك بقوله تعالى "إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين"(٣) . وقد قرر إخوة يوسف فى هذه الآية الشريفة أن أباهم يحبهم ولكنه يحب يوسف وبنيامين أكثر منهم ، ونسوا صغر سنهما وضعفهما وحاجتهما إلى الرعاية والعطف والحنان أكثر منهم . وتلك فطرة فى الانسان فإن قلب الاب يتعلق بأولاده كلهم لكن يكون تعلقه أكثر بالصغير حتى يكبر وبالمريض حتى يبرأ ، وبالغائب حتى يحضر .

ولكن إخوة يوسف أنكروا على أبيهم هذه الفطرة ، وتلك الغريزة ، وقالوا كيف يكون هذا الحب من أبينا ليوسف وأخيه ، ونحن عصبه ، يعنى جماعة كبيرة ، وكان الأجدر به أن يهتم بنا ، وأن يحبنا مثل يوسف وأخيه ، ولكنه لم يفعل لأنه فى ضلال مبين .

والضلال فى الشيء الانهماك والتفانى فيه ، ومبين يعنى ظاهر واضح لا يخفى على أحد . والمعنى أن أبانا قد أمعن فى حب يوسف وأخيه ، وأصبح حبه هذا بيناً واضحاً ، لاشك فيه ، ولا يسمع لكلام أحد حول الموضوع الذى نريده . وعلى ذلك فإننا قررنا قتل يوسف ، أو طرحه فى أرض بعيدة عن الأرض المطروقة للناس ، حتى لا يعثر عليه أحد . وقرروا قتل يوسف دون أخيه لأن أباه يحبه أكثر ، ولأنهم علموا بالرؤيا التى رآها يوسف عليه السلام ، فزاد حقدهم عليه وكراهيتهم له . وقد ذكر القرآن ذلك فقال : "اقتلوا

---

(٣) آية (٨) يوسف .

يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين"[1] .

والشيء العجيب أنهم رجال كبار ، ويهتمون بحب أبيهم إلى هذه الدرجة التي وصلوا فيها للتخلص من يوسف بهذا الأسلوب المؤلم ، وذلك من أجل أن يستأثروا بحب أبيهم ، ويتفرغ لهم قلب يعقوب ، لأن يوسف قد انتهى وبعد عن وجه أبيهم ، فيتجه إليهم يعقوب ويحبهم ، ويكونون بعد هذا الحب قوماً صالحين . وذلك لأن الأنبياء لايحبون أحداً إلاّ وقد أحبه الله ورضي عنه .

ومن هنا يظهر أن الحب الذى كانوا يطلبونه هو حب من نوع خاص ، وليس عطف الأبوة وحنانها المعروف ، ولكنهم كانوا يطلبون الحب الذى ينالون به ميراث النبوة من أبيهم ، وخافوا أن يستأثر به يوسف دونهم ، فارتكبوا من أجل ذلك ما فعلوه بيوسف ، ومن أجل هذا المقصد تاب الله عليهم وسامحهم سيدنا يوسف وسيدنا يعقوب .

وقد كان فى أخوة يوسف رجل عاقل ، فاستبشع جريمة القتل وقال لهم : "لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين"[2] . فاستحسنوا هذا الرأى وأجمعوا عليه ، ونفذوه فعلاً ، وتحايلوا على أبيهم أن يأخذوا يوسف معهم ، ليرتاض ويلعب ، ويأكل ويشرب معهم أثناء لعبهم ورعيهم بهائمهم ، ودخلوا على يعقوب بكلام رقيق مدبج ومنمق ، وقالوا له : "ياأبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وانتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون"[3] .

---

(١) آية (٩) يوسف .
(٢) آية (١٠) يوسف .
(٣) آية (١١- ١٤) يوسف .

وقد سمح لهم سيدنا يعقوب أن يأخذوه بعد أن سمع منهم تعهدا يكشف عن شهامتهم ومروءتهم ، وشدة حرصهم وعنايتهم بيوسف ، وأن الذئب كيف يأكله منهم وهم عصبة قوية حوله ومعه ، وأن الذئب لايستطيع أن يقربه أبداً .

ومع أن أباهم أخبرهم بمؤامرتهم قبل أن يفعلوها ، إلا أنهم سادرون فى تنفيذها مهما كان ، وكأنه كان يعلم الغيب عليه السلام حين قال لهم (إنى ليحزننى أن تذهبوا به) . يعنى أنا حزين على ذهاب يوسف معكم لعدم اطمئنانى عليه ، وخوفى من اعتداء الذئب عليه وأنتم فى غفلةٍ عنه . وكأن هذا التعبير لهم من سيدنا يعقوب زاد من كيدهم وتصميمهم على تنفيذ مابيتوه ، ولاحول ولا قوة إلاَّ بالله العلى العظيم .

وانتهى الأمر بإلقاء يوسف عليه السلام فى غيابة الجب ، عله يموت أو يلتقطه أحد المسافرين الذين يستقون من هذا البئر إن لم يمت .

وكان هذا الذى وقع لسيدنا يعقوب فى ولده يوسف عتاباً من الله له على انشغاله بحب يوسف عليه السلام ، عن رعاية العدالة فى الحب بين الأبناء ، أو عاتبه على انشغال قلبه بحب يوسف عن الله عزَّ وجلَّ .

وهذه سنة الله مع رسله وأنبيائه ، لأن الله خلقهم لذاته ، وأفردهم لحضرته ، واصطفاهم لجنابه العلى ، وأشهدهم بديع جماله ، وعظيم جلاله ، وعلِّى كماله ، فلا ينبغى لهم الانشغال بغيره نفساً من أنفاسهم ولو كان من أعز أبنائهم ، وأكرم عشيرتهم ، لأن العارف بالله من توحد مطلوبه ورضى بما قدره محبوبه ، ولم يشغله مال ولا صاحبة ولا ولد عن الواحد الأحد الفرد الصمد . فكيف برسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ؟

إنهم أجلُّ قدراً ، وأعلى مقاماً ، وأعظم إجلالاً وحباً لله عزَّ وجلَّ . فمجرد التفاته واحدة منهم عن الله ولو نفساً ، محل معاتبه ومساءله ، لعظم قدرهم عند الله ، وعلو منزلتهم عنده سبحانه ، واقترابهم من جنابه المقدس ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد ظلَّ سيدنا يعقوب يبكى على يوسف عليه السلام حتى ابيضت عيناه من الحزن والأسى . وكان مع هذا الحزن والألم الذى ألَّم به ، يكظم غيظه ، ويدارى أسفه ، ويكتمه عن أهله وأولاده ، ولا يظهر منه شيئا ، لأنهم كانوا يلومونه ويسيئونه على ذلك . وقد ذكر الله هذه المعانى فى قوله تعالى "وتولى عنهم وقال ياأسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكوا بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون"(١) .

وكان الحزن والبكاء على يوسف من حيث أنه نبى ورسول ، وأن فقدانه خسارة لاتعوض أبداً ، وأن الرسل هم صفوة الله من خلقه ، وخيرته من عباده ، وموتهم أو فقدهم مصيبة أعظم من كل مصيبة ، لأنهم رحمة الله بعباده ، ونعمة الله على خلقه . وأن يوسف عليه السلام هو الذى سيرث أباه ، وذلك بحكم الرؤيا التى رآها يوسف وعبرها له أبوه عليه السلام .

فكان البكاء لكل هذه المعانى ، وليس البكاء على يوسف من حيث أنه الإبن الصغير المفقود والمعتدى عليه فقط ، ولكنه كان من أجل ماذكرنا .

نسأل الله من فضله أن يعلمنا ما لم نكن نعلم إنه مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) آية (٨٤ - ٨٦) يوسف .

خاتمة

قال الله تعالى : "ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون"[1] . فقد أرسل الله رسله عليهم الصلاة والسلام ، وأيدهم بروحه ، ونصرهم بعزته وقوته ، وكان الواحد منهم أقوى من قومه كلهم ، حتى يستطيع مواجهتهم جميعاً ، ولله القوة القاهرة ، والحجة البالغة . وكان أعظمهم قوة وصبرا ، وأوسعهم حلماً ورحمة ، هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع عموم رسالته ، وشمول دعوته جميع العالمين .

ولقد ذكرت فى هذا الكتاب بعض المواقف لبعض الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهناك كثير من المواقف التى عظمت جلالةً وقدراً لم يشتمل عليها هذا المختصر . وقد اكتفيت بهذا القدر منها ، على أنه إن سمحت لى فرصة أخرى بالحديث عن تلكم المواقف الرفيعة ذكرتها إن شاء الله ، على قدر ما يفتح الله به عليَّ .

هذا وإنى أنا العبد الضعيف المسكين ، الذى لاحول له ولا قوة له إلَّا بالله ، والذى لايملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً إلَّا ما شاء الله ، قد استعنت بالله تعالى فى كتابة هذه المذكرات ، واسترشدت فيها بكتاب الله سبحانه ، وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبهدى الأئمة الراشدين ، على قدر ما استطعت ، وتحريت فيها وجه الصواب ، ولم أدخر وسعاً فى ذلك .

وإنى أحمد الله عزَّ وجلَّ وأشكره على حسن توفيقه ، وكريم معونته التى أمدنى بها ، حتى تمت تلك المذكرات على هذه الصورة التى بين يديك أيها القارىء الكريم . وإنى أرجو الله سبحانه أن ينفعنى بها فى الدنيا والآخرة ، وأن ينفع بها إخوانى المسلمين ، وأن

---

(١) آية (١٧١ - ١٧٢) الصافات .

يجعلها مغفرة لذنوبى ، وستراً لعيوبى ، وأن يجزى أبنائى وإخوانى الذين جاهدوا فى تصحيحها وتخريج آياتها وأحاديثها وطبعها خير الجزاء ، كما أساله من فضله العظيم أن يتقبلها خالصة لوجهه الكريم ، إنه سميع مجيب الدعاء .

"ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد"[1] . وصلى الله على سيدنا محمد الذى افتتح الله به الإيجاد ، وأسبغ به الإمداد ، وجعله لكل قوم هاد ، وختم به أنبياءه الأمجاد ، وعلى آله وصحبه وسلم . آمين . . وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) آية (١٩٤) آل عمران .

الفهرس

صدر للمؤلف

١ ــ خواطر إيمانية حول تنظيم الاسرة .
٢ ــ الامام أبو العزائم كما قدم نفسه للمسلمين .
٣ ــ أنوار التحقيق فى وصول أهل الطريق .
٤ ــ علامات وقوع الساعة .
٥ ــ حكمة الحج واحكامة .
٦ ــ مصابيح على طريق الإيمان (ثلاثة أجزاء) .
٧ ــ شُعب الإيمان .
٨ ــ عبادة المؤمن اليومية .
٩ ــ شرح الفتوحات الربانية
فى الصلاة على خير البريه للامام
المجدد السيد / محمد ماضى ابو العزائم
١٠ ــ مواقف بعض الرسل فى القرآن الكريم .

تحت الطبع للمؤلف

١ ــ قبسٌ من معانى سورة النور .
٢ ــ كيف يدعو الإسلام الناس إلى الله .
٣ ــ الإنسان الوسط .
٤ ــ الإسراء معجزة خالدة .
٥ ــ رسالة الصيام .
٦ ــ الإنسان الأكمل .

رقم الايداع ٤٦٥٥ / ٨٥